التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر
(١٤)

الأمويون والعباسيون والعثمانيون والدويلات المستقلة

الجزء الثاني

دكتور
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢
الترقيم الدولى
977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
١ شـارع منشـا - محـرم بك - الإسـكندرية
ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥
مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضـراء للنشر والتوزيع
حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية



مواقف وعبر

فى

فتــوح المغــرب

١ – فتوحات عبد الله بن سعد –

كانت الفَتوحات في أفريقية قد توقفت في عهد عمر رضي الله عنه بعد فتح مصر حيث لم يأذن لعمرو بن العاص رضي الله عنه بالتوغل بجيوش المسلمين قبل رسوخ حكمهم وقوتهم في مصر، واكتفى عمرو بتأمين حدود مصر من الناحية الغربية حيث فتح برقة وزويله من بلاد ليبيا والنوبة من بلاد السودان بقيادة عقبة بن نافع الفهري .

ولما تولى الخلافة عثمان رضي الله عنه ولَّى على مصر عبد الله ابن سعد بن أبي السرح وكان عبد الله مشاركا في فتوح مصر حيث كان على ميمنة جيش عمرو بن العاص وولاه عمر بن الخطاب على صعيد مصر مع عمرو بن العاص ، وكان عمرو يبعثه في بعض الغزوات فاكتسب خبرة واسعة بتلك البلاد ، فلما ولاه عثمان على مصر وماوراءها استأذنه في غزو أفريقيا من ناحية الغرب فاستشار عثمان أهل الشورى من أصحاب رسول الله ﷺ فأشار أكثرهم عليه بالإقدام على ذلك ، وقد سار عبد الله بن سعد بجيش قوامه عشرون ألفًا وانضم إليه عقبة بن نافع الذي كان مرابطا في ليبيا ، وجرت الموقعة الكبرى بين المسلمين والروم ومن معهم من البربر وكان الروم بقيادة جرجير ، وانتصر المسلمون عليهم كما تقدم .

واستمر عبد الله بن سعد في غزواته وفتوحه حتى أتم فتح المغرب

الأدنى [تونس] إلى أن توقف الجهاد بسبب الفتنة الكبرى التي كان فيها قتل عثمان رضي الله عنه (١) .

* * *

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٤ ، النجوم الزاهرة لابن تَغْـرى بَرْدي ١/ ٧٩ وانظر قادة فتح المغرب العربي لمحمود شيت خطاب ١/ ٥٤ .

٢ – فتوحات معاوية بن حُدَيج

كان أحـد القادة في فـتوح أفـريقيا مـعاوية بن حُـدَيج السكوني الكندي الذي اتخـذ مقـرا للمسلمين في تونس وثبَّت وجـود المسلمين فيها، وذلك في عام أربعة وثلاثين للهجرة، ثم فتح مدينة بنزرت عام واحد وأربعين .

قال ابن عـذاري : وفي سنة ٤٥ غزا مُـعاوية بن حـديج الكندي إفريقية ، وكانت حربًا كلَّها . قال الطبري : وذلك أن حُباحبة الرومي قدم على مـعاوية بن أبي سفيـان ، فسأله أن يبـعث معه جيـشًا إلى أفريقية، فوجَّه مُعاوية بن حُـدَيج في عشرة آلاف مقاتل . فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية، فاستعمل عليـها حباحبة الرومي . ومضى ابن حديج حتى دخل أفريقية . وكان مـعه عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن أبيه وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ! وعبـد الملك بن مـروان ويحيى بن الحكم بن العـاص ، وغيـرهم من أشراف قريش فبعث ملك الروم إلى أفريقـية بطريقًا يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فأخرج إليه معاوية بن حديج عبد الله ابن الزبير في خيل كـثيفة ، فسار حـتى نزل على شرف عال ، ينظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسـة اثنا عشر ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفورًا، أقلع في البحر ، منهزمًا من غير قتال . فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسـة ، فوقف على البحـر ، وصلى بالمسلمين صلاة العصـر، والروم يتعجـبون من جُرءته ، فأخـرجوا إليه خـيلاً ، وابن الزبير مُقـبلٌ على صلاته، لايهولُه خبرُها ، حـتى قضى الصلاة ، ثم

ركب ، وحمل على الروم بمن معه ، فانكشفوا منهزمين ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القَرْن [1] .

وهكذا رأينا ذلك الزعيم الأفريقي يـأتي إلى أمير المؤمنين ويطلب منه توجيه جـيش لفتح أفريقية وتخليـصها من ظلم الروم ، وهذا أثر من آثار العدالة الإسلامية ، والمعـاملة الكريمة التي عامل بها المسلمون أبناء البلاد التي فتحوها ، فصار أعداؤهم الذين غزوهم عونا لهم على عدوهم المشترك ، دولة الروم ، وماكان هناك من سبب لتفضيل حماية المسلمين إلا ماكانوا يتمتعون به من العدالة والأمانة والوفاء .

وفي هذا الخـبر موقف لعـبد الله بن الزبـير رضي الله عنهـما ، حـيث لم يفزع من مـجيء جيـش الروم وهو يصلي بالناس ، بل أتم صلاته بطمأنينة ، وهذا دليل على شجاعته وقوة خشوعه وحضور قلبه مع الله تعالى ، وقد اشتهر بأداء الصلاة الكاملة .

وقد أصيب الروم بالرعب والذهول من هذا المشهد الغريب، وكان ذلك من أسـباب انهـزامهم حـينما حـمل عليـهم ابن الزبير بالجـيش الإسلامي .

وأخرج ابن عبد الحكم من خبر عثمان بن صالح قال : فانتهى - يعني معـاوية بن حديج - إلى قونيـة وهي موضع مدينة قـيروان، ثم مضى إلى جـبل يقال له : القرن ، يعـسكر إلى جانبه ، وبعث عـبد الملك بن مروان إلى مدينة يقال لها : جلولاء في ألف رجل فحاصرها

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/١٦ ، وجبل القرن في تونس وحوله انشأ معاوية بن حديج مدينة القيروان .

أياما ، فلم يصنع شيئًا فانصرف راجعا ، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقة الناس غبارا شديدًا ، فظن أن العدو قد طلبهم فكرَّ جماعة من الناس لذلك ، وبقي من بقي على مصافهم ، وتسرع سرعان الناس، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون وغنموا مافيها . وانصرف عبد الملك إلى معاوية ابن حديج ، فاختلف الناس في الغنيمة فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان . فكتب أن العسكر ردء للسرية ، فقسم ذلك بينهم ، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار،وضرب للفرس بسهمين ،ولصاحبه بسهم ،قال عبد الملك: فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار،واشتريت بها جارية[1] .

ولم تقتصر جهود معاوية بن حديج على الغزو البَّرِّي فقد وجه حملة بحرية بقيادة عبد الله بن قيس إلى جزيرة صقلية ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : وأغزى معاوية بن حديج جيشا في البحر إلى صقليه في مائتي مركب فسبَوا وغنموا ، وأقاموا شهرا ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر ، فاقتسموا فيئهم، وبعث ابن حديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان [2] .

* * *

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم / ١٣١ - ١٣٢ ، وانظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٨ .

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٦ - ١٧ .

٣ - فتوحات عقبة بن نافع الأولى -

أما الرجل الذي اقترن باسمه فتح بلاد المغرب ونال في ذلك شهرة واسعة فهو عقبة بن نافع الفهري القرشي ، وهو من مواليد العهد النبوي واختلف في صحبته ، وقال ابن الأثير : لاتصح له صحبة[١].

وقد بدأ جهاده في فتوح مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، واكتسب خبرة حربية عالية من صحبته لعمرو الذي كان يُعِدُّه للمهمات الحربية .

وقد بعثه عمرو على رأس جيش من المسلمين إلى « زويلة» وذلك في سنة إحدى وعشرين ، فأصبح مابين برقة وزويلة من بلاد ليبيا سلمًا للمسلمين .

وفي هذه السنة بعثه عمرو إلى بلاد النوبة جنوب مصر ، فالتقى المسلمون مع أهلها في قتال شديد ، ثم انصرف عقبة عنهم ، وبذلك كان أول من مهَّد لفتح بلاد النوبة من المسلمين .

كما أنه شارك في بعض غزوات أفريقيا تحت إمرة عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

ومما يُذكر له رباطه مع جيشه في برقة عدة سنوات لحماية دولة الإسلام من الغرب ، وأصبحت تلك البلاد قاعدة لفتح البلاد الأفريقية ، وقد قام آنذاك بعدة غزوات بَرِّية وبحرية لتأمين البلاد وتأديب بعض المتمردين الذين ينقضون العهد [٢] .

---

(١) أسد الغابة ٣/ ٤٣٠ .

(٢) انظر قادة فتح المغرب العربي ٩٤ - ٩٥ .

مغامرات في جوف الصحراء :

من غزوات عقبة بن نافع المثيرة ماقام به من الغارة على بعض بلدان الصحراء الكبرى ، وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن عبد الحكم فيما رواه عن الليث بن سعد : ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين ، ومعه بسر بن أبي أرطاة ، وشريك بن سمى المرادي ، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سِرْت قال : وبلغه أن أهل ودّان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ماكان بسر بن أبي أرطأة فرض عليهم . وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بُسرًا قبل ذلك ، وهو محاصر لأهل طرابلس فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي وزهير بن قيس البلوي . ثم سار بنفسه وبمن خلف معه أربعمائة فارس وأربعمائة بعير وثمانمائة قربة . حتى قدم ودان فافتتحها . وأخذ ملكهم فجدع أذنه . فقال : لِمَ فعلت هذا بي وقد عاهدتني ؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك ، إذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب .

قال : ثم سألهم عقبة : هل من ورائكم أحد؟ فقيل له : جَرْمه. وهي مدينة فزّان العظمى . فسار إليها ثماني ليال من ودان . فلما دنا منها أرسل فدعاهم إلى الإسلام ، فأجابوا فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة . وأرسل عقبة خيلا فحالت بين ملكهم وبين موكبه ، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب . وكان ناعما فجعل يبصق الدم . فقال له : لِمَ فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا ؟ فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب .

قـال: ثم مضى على جـهتـه من فوره ذلك إلى قـصور فـزان، فافتـتحها قـصرا قصرا ، حـتى انتهى إلى أقصاها ، فـسألهم هل من ورائكم أحد ؟ قالوا : نعم . أهل خاوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة ، في وعورة على ظهـر جبل، وهو قصبة كوار ، فـسار إليهم خمس عـشرة ليلة ، فلما انـتهى تحصنوا . فـحاصرهم شـهرا. فلم يستطع لهم شيئًا . فمضى أمـامه على قصور كوار فـافتتحـها، حتى انتهى إلى أقصاها ، وفيه ملكها ، فـأخذه فقطع أصبعه . فقال : لم فعلت هذا بي ؟ قال : أدبا لك إذ أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب .

قال : فـسألهم هل من ورائكم أحد ؟ فـقال الدليل: ليس عندي بذلك معرفة ولادلالة . فـانصرف عقبة راجعا ، فمـر بقصر خاوار ، فلم يعرض له ، ولم ينزل بهم ، وسار ثلاثة أيام . فـأمنوا ، وفتحوا مدينتهم ، وأقام عقبة بمكان اسـمه اليوم ماء فرس، ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش شـديد أشفى منه عقبة وأصـحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين . ودعا الله . وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كـشف عن صفاة فانفـجر منها الماء ، فجـعل الفرس يمص ذلك الماء ، فأبصـره عقبـة ، فنادى في الناس أن احتفـروا فحفروا سـبعين حسيا، فـشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فـرس . ثم رجع عقبة إلى خاوار ، من غـير طريقـه التي كان أقبل منهـا، فلم يشعـروا به حتى طرقهم ليلا ، فوجـدهم مطمئنين . قد تمهدوا في أسرابهم. فـاستباح ما في المدينة من ذرياتهم ، وأموالهم ، وقتل مـقاتلتهم . ثم انصرف

راجعا ، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم ، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر ، وقد جمَّت خيولهم وظهرهم ، فسار متوجها إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم ، وأخذ إلى أرض مزاتة ، فافتتح كل قصر بها ثم مضى إلى . . . فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس ، فافتتحت غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصة ، فافتتحها وافتتح قصطيلية (١) .

وهكذا كان عقبة على رأس هذه الحملة المغامرة وكان بإمكانه أن يبعث قائدًا غيره وأن يبقى مع جيشه في أمان ، ولكنه كان من قوم يتسابقون إلى المعالي ، وتكون ساعات الأنس والراحة عندهم بين صليل السيوف وصهيل الخيول وقطع الفيافي ، فهو لا يبرُّ غيره بعمل تهواه نفسه وينتظر من ورائه رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

أما مسوغ هذه المغامرة بهذا العدد القليل فهو كون الجيش الخفيف أسرع تحركا في الصحراء ، ولكون البلاد الصحراوية تخلو عادة من التجمعات الكبيرة ، ويصعب الإمداد فيها لبعد المسافات .

وهكذا كان عقبة بن نافع ناجحا في تخطيطه الحربي كما كان ناجحا في سياسته الإدارية ، وإن أهم عوامل نجاحه قربه من الله تعالى واعتماده عليه في تفريج الكربات وتذليل الصعوبات .

إنشاء مدينة القيروان :

لما انتهى عقبة بن نافع من غزواته المذكورة أراد أن يتخذ للمسلمين مكانا يستقرون فيه لايشركهم فيه غيرهم ، ليكون أمانا لهم ،

---

(١) فتوح مصر و أخبارها / ١٣٢ - ١٣٣ باختصار .

ولينطلقوا منه في أعمالهم الجهادية ، وفي ذلك يقول إبراهيم بن القاسم فيما ذكره ابن عذاري : ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحها ، ودخلها، ووضع السيف في أهلها ، فأفنَى من بها من النصارى . ثم قال : إن أفريقية، إذا دخلها إمامٌ ، أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ! فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتَّخذوا بها مدينة تكون عِزّاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناسُ على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين ، وقالوا : نقرُب من البحر ليتم لها الجهاد والرباط ، فقال عُقبة : إني أخاف أن يطرُقها صاحبُ القسطنطينية بغتةً فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يُدركها صاحبُ البحر إلا وقد عُلم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالايُوجب فيه التقصيرَ للصلاة[1] ، فهم مرابطون ، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قربوها من السَّبْخة فإن دوابكم الإبل، وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فَرَغْنَا منها لم يكن لنا بُدٌّ من الغزو والجهاد ، حتى يفتح الله لنا منها الأوَّل فالأوَّل ، وتكون إبلُنا على باب قصرنا في مَراعيها، آمنةً من عادية البربر والنصارى .

قال : وفي سنة إحدى وخمسين شرع عُقبة في ابتداء بناء مدينة القَيْرَوان ، وأجابه العَرَب إلى ذلك . ثم قالوا : إنك أمَرْتَنا بالبناء في شعار وغياض [٢] لاتُرام . ونحن نخاف من السباع والحيَّات وغير

(١) يعني أن تكون أدنى من المسافة التي تقصر فيها الصلاة .

(١) الشعار الشجر الملتف ، والغياض الأراضي التي يجتمع فيها الماء فينبت فيها الشجر.

ذلك! وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ،وسائرهم من التابعين . فدعا الله - سبحانه - وأصحابه يؤمنون على دُعائه ، ومضى إلى السبخة وواديها ، ونادى : أيتها الحيَّات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ . فارحلوا عنَّا فإنَّا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناهُ ، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجِب، من أنَّ السباع تخرج من الشّعْرَاء (١) وهي تحمل أشبالها سمعًا وطاعةً ، والذئب يحمل جروَه، والحيَّة تحمل أولادها . ونادى في الناس : كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها ، فخرج مافيها من الوحش والسباع والهوامّ والناسُ ينظرون إليها ، حتى أوجعهم حرُّ الشمس ، فلمَّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا ، فأمرهم أن يقطعوا الشجر ، فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عامًا لايرون بها حيَّةً ، ولاعقْربًا ، ولاسبُعًا. قال : فاختطَّ عُقبة أولًا دار الإمارة ، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطَّه، ولم يُحدث فيه بناء . وكان يصلي فيه وهو كذلك فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا : إن جميع أهل المغرب يضعون قِبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها ، فأقاموا أيَّامًا ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس ، فلمَّا رأى أمرهم قد اختلف بات مغمومًا، فدعا الله - عز وجل - أن يُفَرج عنه . فأتاه آتٍ في منامه فقال له : إذا أصبحتَ فخذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك . فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لايسمعه أحدٌ من المسلمين غيرك . فانظُر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا

(١) أي من الشجر .

المسجد وهذه المدينة ، وسوف يعز الله بها دينه ، ويذلُ بها من كفر به، فاستيقظ من منامه وهو جزعٌ ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشرافُ الناس ، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله : أتسمعون ماأسمع؟ فقالوا: لا ، فعلم أنَّ الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عُنُقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة .

ثم أخذ الناس في بناء الدُّور والمساكن والمساجد وعمرت، وشد الناسُ إليها المطايا من كل أُفُق وعظم قدرها . وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع حتى كمل أمرُها .

وكان عقبة خير والٍ وخَيْرَ أميرٍ ، مُسْتجَاب الدعوة (١) .

وإننا أمام هذا الخبر نلاحظ عددًا من المواقف والعبر، فمن ذلك:

أولا : أن عقبة بن نافع - رحمه الله تعالى - قد أصاب الرأي السديد حينما اتخذ مكانا آمنا يكون مأوى للمجاهدين المرابطين، ومن تحت حراستهم من الذراري والمتاع .

وفي الاحتياطات الأمنية التي ذكرها في مسوغ إبعاد المكان عن البحر دلالة على عمق إدراكه الحربي، وتخطيطه لمواجهة العدو حتى لايؤخذ المسلمون على غرَّة .

---

(١) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/١٩ - ٢١ .

وانظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٠ ، والكامل لابن الأثير ٣/ ٢٣٠ وفتوح مصر لابن عبدالحكم / ١٣٣ .

وفي حرص بعض أفراد ذلك الجيش على القرب من البحر مع خطورة ذلك دلالة على صدق إيمانهم وقوة تقواهم حيث كانوا يرجون ثواب المرابطين على البحر لمواجهته المباشرة للعدو .

ولكن القائد الذي يشعر بمسئوليته عمن تحت ولايته كما يشعر بمسئوليته عن مستقبل الإسلام ودولته لايندفع مع حماس بعض أقوياء الإيمان ، بل ينظر لمواضع خَطْوِه ونتائج عمله قبل الإقدام ، وكون طائفة من الجيش يقبلهم الله تعالى شهداء عنده خير كبير لهم ، وهذا من أزكى مايتنافس فيه السابقون ، ولكن يجب على القائد قبل ذلك أن ينظر إلى الأمور التي تقوِّي دولة الإسلام وتُظهر عزَّة المسلمين، في الوقت الذي يحرص فيه على كيد الكفار والنكاية بهم، وحيث إن استشهاد طائفة من المسلمين يضعف من شأنهم ويقوي جانب أعدائهم، ويجرِّؤهم على المسلمين فإن قصد الشهادة وإن كان نبيلاً لايجوز للقادة أن يتخذوه هدفا لهم ، ولكن إذا وقع ضرورةً فإن من واجب القادة أن يغتنموه في رفع معنويات الجنود ودفعهم إلى النكاية بالأعداء .

ومع هذه الملاحظة المهمة فإننا نجد عقبة لايكسر مافي نفوس هؤلاء المتحمسين من هذه الرغبة السامية نحو الحصول على ثواب المرابطين في نحر العدو ، بل يجمع لهم بين الأمرين : اتخاذ المكان الآمن من مفاجآت العدو ، مع قربه من البحر إلى الحد الذي لايعتبر مسافة قصر ،وهذا يجعلهم جميعًا من المرابطين في سبيل الله تعالى.

وإن هذا التصرف الحكيم يعطينا فكرة عما كان يتمتع به عقبة من

بُعد النظر ، مع الإبقاء على معنوية أفراد الجيش ، والحفاظ على بروز شخصيتهم ، حتى يكون عطاؤهم في الجهاد مفتوحا، لاتحده العوائق، ولاتضعفه المثبطات .

ثانيًا : فيه عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم من نصر الإسلام ونشره في الأرض ، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبها الخوف منه ، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك .

وقد رأى ذلك قَبِيلٌ كثير من البربر فأسلموا ، كما ذكر ابن الأثير في روايته (١) .

هذا وقد حمل بعض المحققين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامي فحملت أولادها وولَّت هاربة .

وهذا التأويل من عجائب بعض المحققين حيث يُغفِلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردِّ مالايؤمن به العقل المجرد ، كماأنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة ، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى مايشبه الأساطير ، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذي

---

(١) الكامل ٣/ ٢٣٠ .

اعتمدوه لاينسجم مع العقل السليم ، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوي إلى جحورها الآمنة لتستخفي بها ولاتلجأ إلى الهرب حتى لاتتعرض للأذى مما فزعت منه ،ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك مايدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل ذلك ، ولم يكن في ذلك مايحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة .

وقد جاء في إحدى روايات ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثني زياد بن العجلان : أن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التمُسَتْ حية أو عقرب بألف دينار ماوُجدت .

ثالثًا : عبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة وماتلا ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر .

* * *

٣- فتوحات أبي المهاجر -

أبو المهاجر هو دينار مولى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري، وكان معاوية بن أبي سفيان قد ولَّى على مصر مسلمة بن مخلد، وكان أبو المهاجر قد تعلم من مسلمة كثيراً من أمور الحرب والإدارة، ورأى فيه كفاءة فولاه على أفريقية التي كانت تطلق على البلاد التي تقع غرب مصر، وكان مركزها القيروان في تونس، وكان ذلك في عام خمسة وخمسين للهجرة، وعَزَل عنها عقبةبن نافع الفهري بعد ولايته الأولى.

ومن مواقف أبي المهاجر الجهادية أنه قاد الجيش الإسلامي إلى «قرطاجَنَّة» عاصمة الروم في شمال أفريقية [1] فحاصرها وتحصن الروم بأسوارها العالية، فشدد عليهم أبو المهاجر الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر على أن يُخلو له جزيرة «شريك» [2] التي كان الروم يتخذونها مركزًا لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين.

وقد أشاد اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصنيع من أبي المهاجر واعتبر ذلك تخطيطًا حربيًا عاليا حيث كسب المسلمون موقعًا مهمًا يستطيعون من خلاله أن يراقبوا تحركات الروم [3].

---

(١) وهي مدينة قديمة على ساحل البحر الأبيض بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا - معجم البلدان ٧/ ٥٢ - .

(٢) وهي واقعة بين سوسه وتونس كما في معجم البلدان وذكر محمود شيت خطاب أنها شبه جزيرة .

(٣) قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩ .

ومن مواقفه أنه أول من أقام مرابطًا بجيشه لمدة سنتين في مدينة «مَيْلة» بين المغرب الأدنى والأوسط ، وذلك بعد أن فتحها ، وكان القواد قبله يغيرون ويفتحون البلاد ثم يرجعون ، وقد قام بجهود طيبة خلال تلك المدة في نشر الإسلام بين البربر .

وكانت الزِعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة « أوْرْبَه » من البربر وكان زعيمها « كسيلة بن لمزم » وكان البربر يجلونه ويحبونه ، فلما رأى أبا المهاجر قد رابط في ميلة » علم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى ، فصار يجمع الجيوش لصد المسلمين فاجتمع له جيش من البربر والروم .

وسمع أبو المهاجر بجمعه فسار إليه في مكان عسكره بتلمسان والتقى الجيشان هناك ، ودارت بينهما معركة حامية، انتصر فيها المسلمون، وأُسِرَ كسيلة فحُمِل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملَة الملوك ، وأظهر كسيلة الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه [1] .

وفي هذا الخبر دلالة على نجاح أبي المهاجر في القيادة الحربية حتى استطاع التغلب على ذلك الخصم المطاع الذي اجتمع له الروم والبربر.

ثم إن فيه دلالة على اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام حيث اهتم بإسلام ذلك الزعيم البربري ، وبإسلامه يمكن أن ينجذب قومه إلى الإسلام ، كما أنه يدل على نجاحه في الدعوة حيث استخدم في ذلك الجانب الأخلاقي ، وذلك بحسن التعامل وإكرام الزعماء المتبوعين تألفًا لقلوبهم وقلوب أقوامهم .

---

(١) فتوح مصر / ١٣٣ - ١٣٤ ، قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩ .

ومما يذكر لأبي المهاجر أنه أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط .

وبعد هذه الرحلة الناجحة في الدعوة والجهاد عاد أبو المهاجر إلى القيروان ولما تولى يزيد بن معاوية الخلافة عزل أبا المهاجر عن ولاية أفريقية وأعاد إليها عقبة بن نافع الفهري ، وقام عقبة برحلته الجهادية الطويلة كما سيأتي .

وكان بصحبته أبو المهاجر ، وكان أبو المهاجر يسدي إليه النصائح القيمة في مجال الإدارة والحرب بالرغم مما حدث بينهما من الجفوة، ومن أبرز هذه النصائح إشارته عليه بإكرام زعيم البربر القوي كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام وكان قد أسلم على يد أبي المهاجر، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم ، حيث أمره يوما أن يسلخ شاة بين يديه ، فدفعها كسيلة إلى غلمانه ، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره ، فقام إليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته ، وبلغ ذلك أباالمهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه ؟ توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه .

فتهاون به عقبة ، فلما انصرف غزوه نكث البربر ماكانوا عليه وأقبلت النُّفرة إلى عقبة ، فقال له أبو المهاجر : عاجلْه قبل أن يجتمع أمره .

واغتنم كسيلة فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي فقال

عقبة لأبي المهاجر : الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة ، فقال أبو المهاجر : وأنا أغتنم الشهادة مثلك ، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا [1] .

ومن هذا الخبر يتبين لنا تفوق أبي المهاجر من ناحية السياسة والإدارة ، فإنه قد خاض معركة كبرى واحدة دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر ، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومهم في الإسلام ، ووفر أبو المهاجر بذلك جهودًا كبيرة لابد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم .

ولاشك في أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه ، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين .

ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بإسلام ، ولم يدخلوا فيه عن قناعة وإنما من باب الاستسلام والخضوع للأقوى .

ولم يكن وضع كسيلة في تظاهره بالإسلام خافيا على أبي

---

(١) قادة فتح المغرب١/١٣٧ - ١٤٢عن الاستقصاء ١/ ٧١ - ٧٢،رياض النفوس١ / ٢٦- ٢٧ وانظر النجوم الزاهرة ١/١٥٨ - ١٥٩ .

المهاجر، وإنما قبل منه ظاهر أمره واستبقاه في جيشه ليأمن شره، ثم لعل إسلامه الظاهري يتحول إلى إيمان باطني مع مخالطة المسلمين ومعاملتهم الكريمة، وكلام أبي المهاجر السابق يدل على ذلك حيث شبَّه كسيلة بجبابرة العرب الذين كان رسول الله ﷺ يتألفهم للإسلام، وحيث قال لعقبة بعدما جرى منه ماجرى: توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه .

ومهما كان لظن عقبة فيه من احتمال في عدم الصدق في الولاء فإن كسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضرب المسلمين من مكامن الخطر، وهو الذي صحبهم وحاز على شيء من ثقتهم .

وسيتبين لنا في مواقف فتوح السند المكاسب الكبيرة التي حصل عليها المسلمون من حسن تصرف محمد بن القاسم في معاملة زعماء تلك البلاد ، حيث أصبح من دخل منهم في الإسلام أو حالف المسلمين سنداً قويّا لجيش المسلمين .

ومن موقف عقبة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمها العمل بالشورى وأخذ رأي أهل الحل والعقد خاصة في الأمور المهمة .

وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتهداً في تصرفه ولايظن بواحد منهما أنه كان يعمل لصالح نفسه أو لصالح عشيرته وإنما كان رائدهما النظر لمصلحةالإسلام والمسلمين، ولكن كان اجتهاد أبي المهاجر أوفق إلى الصواب في هذه القضية . رحمهما الله وأجزل مثوبتهما .

* * *

٤ - فتوحات عقبة الثانية -

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزِل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية ، ثم أعيد إليها عام اثنين وستين فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها مايزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب .

خرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان واستخلف على من بقي زهير بن قيس البلوي ، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم : إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله- ثم قال - يابنيَّ أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولاتضيعوها : إياكم أن تملئوا صدوركم بالشِّعر وتتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب مايهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه ، وأوصيكم أن لاتُدَاينوا ولو لبستم العباء فإن الدَّين ذُلٌّ بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تَسلَمْ لكم أقداركم وأعراضكم وتَبْقَ لكم الحرمة في الناس مابقيتم ، ولاتقبلوا العلم من المغرورين المرخِّصين فيجهِّلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولاتأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا . - ثم قال - : عليكم سلام الله وأُراكم لاترونني بعد يومكم هذا - ثم قال - : اللهم تقبَّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك .

وهكذا ماأن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على

الخروج للجهاد غير هياب ولامتردد ، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهُيامه به قوله في وصيته لأولاده « إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله » ، فهو قد باع نفسه من الله عز وجل ، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [**التوبة** : ١١١] .

فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد ، ونصب أمام عينيه الهدف السامي ، وهو إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض .

وكأن السنوات الثمان التي حيل فيها بينه وبين الجهاد كانت سجنا طويل الليالي عظيم الأثقال . . حتى إذا أُفرج عنه وصارت إليه القيادة سارع إلى حشد القوى والخروج في سبيل الله تعالى .

فماذا سننتظر من رجل قيادي وجهادي من الدرجة الأولى وقد مُكِّن من ممارسته هوايته العظمى بعد الحبس الطويل ؟ إنه سيسخِّر كل طاقاته التي وهبها الله له من أجل بلوغ غايته السامية .

ولقد وُفق عقبة بجنود يحبون فيه روح المغامرة والجهاد المتواصل ، فبذلوا من طاقاتهم مايُرضي طموحه وشوقه إلى الإنجاز السريع والعطاء المثمر .

وإننا لنجد في وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليله ، فقد أوصاهم بثلاث وصايا :

الوصيـة الأولى : الاهتمام بانتقـاء العلم واختيار أطيـبه ، وذلك بالاهتمام أولاً بالقـرآن الكريم ، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل ، وماأبلغه من وصف يهـدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسـعى إليه كل مـؤمن ، وهو ابتـغاء رضـوان الله تعالى ونعـيمـه ، ولاشك أن سنة رسول الله ﷺ ممـا يدخل في مقاصـد القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [**الحشر** : ٧] .

ثم انتقـاء الطيب من كلام العـرب الذي يرشد إليه العـقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق .

الوصيـة الثانية : البـعد عن الاستـدانة ولو دفع إليها الفـقر لأن الدَّين ذلٌّ بالنهـار حيث يدفع المـستـدينَ إلى بعض مواقف الذل أمـام الدائن ومن لهم علاقة به ، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه .

الوصية الثالثة : التحـري في تلقي العلم ، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتـقوى ، والبـعـد عن العلماء المغـرورين أهل الدنيا والجاه ، فإنهم يزيـدون المتعلم جهلا حيث يبعدونه عن حـقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل .

ونجد عقبة في نهاية وصـيته لأولاده يسلِّم عليهم سلام المودع، مما يدل على استـماتته في سـبيل الله تعالى ، ثم يقـول : « اللهم تقبَّل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك » .

وبهذا الاهتمام الكبـير نجح عقبة بن نافع رحمـه الله في فتوحاته

حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة .

وقد سار عـقبة في جيش عظيم حتى انتـهى إلى مدينة « باغاية» لايدفعـه أحد ، والروم يهربون من طريقـه يمينا وشمالا ، فحـاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالا شـديدًا ، فانهزموا عنه وقَتل فيهم قتلا ذريعًا ، وغنم منهم غنـائم كثيرة ، واحـتمى المنهزمـون داخل أسوار المدينة ، فكره المقام عليهم .

ورحل عقبة فنزل على «تلمـسان» وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حـولها من البربر والروم ، فخرجوا إليـه في جيش ضخم، والتحم القتال ، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن الله منَّ عليهم بالصبر ، فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فـهاجموا الروم هجـومًا عنيفًـا حتى ألجئوهم إلى حـصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة .

واستـمر عقـبة في سيـره نحو المغرب الأقـصى حتى وصل بلاد الزَّاب فسـأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فـقيل له «أَرَبَه» وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة ، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعـضهم إلى الجبال ، فـاقتتل المسلمون مع أهل تلـك المدينة فانهزم أهل تلك البـلاد وقُتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقـبة إلى« تاهرت » فـاستغـاث الروم بالبربر فـأجابوهم ونصروهم .

وقام عقبة في الناس خطيبًا فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس إن أشرافكم وخيـاركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة ، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة ، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه ، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ،وربكم عز وجل لايُسلمكم ، فالْقَوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لايُردّ عن القوم المجرمين فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لايرد بأسه عن القوم المجرمين .

وهذه خطبة عظيمة تدل على أن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد اعتمد في حروبه على السلاح الأعظم الذي فيه سر انتصارات المسلمين الباهرة . . ألا وهو التوكل على الله تعالى ، واستحضار عظمته وجلاله ، ومعيته لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد ، فهو لايبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت ، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيدًا من أن هذا السلاح المعنوي الفعال قد توفر في جيشه ، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجتماع جيوش الأعداء ليكون ذلك أسرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين .

وماأعظم شَبَه عقبة بخالد بن الوليد رضي الله عنه ، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم - من غير غرور ولااستهانة- كلّما

تضخَّم جيش الأعداء وتعددت عناصره، وكأن عقبة قد تأسى به واتخذه له قدوة في القيادة والإقدام الذي لايعرف التردد والسآمة .

وهو في إقدامه واندفاعه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلَّط على أعدائه الكفار ، والله تعالى لايُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين .

إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجَّه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به .

ولقد مرت علينا في معركة الأحزاب ومؤتة واليرموك وغيرها أمثلة رائعة لارتفاع نسبة اليقين لدى الصحابة رضي الله عنهم، إلى الحد الذي أصبحوا يشعرون فيه بقوة ارتباطهم بالله تعالى وعمق توكلهم عليه ورجائهم لنصره وتأييده ، حيث تضخم في حسهم وشعورهم هذا السلاح المعنوي الفعال ، وأصبح السلاح المادي أمرًا ثانويًا مكملا .

ولفرط إحساسهم بفعالية هذا السلاح المعنوي ، وقوة إدراكهم لضرورته فإنهم كانوا شديدي الحساسية من مخالفة أوامر الله تعالى، يحاسبون أنفسهم حسابا شديدًا ، وينكرون على الغافلين الذين لايتنبهون لأهمية ذلك ، و يأخذهم قادتهم غالبا بالحزم والمتابعة المتواصلة في هذا المجال .

والتْقَى المسلمون بأعدائهم في مدينة « تاهرت» وقاتلوهم قتالا شديدًا ، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا

أخيرا ، وانهـزم أعداؤهم من الروم والبربر ، وقُتل منهم عدد كـبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم .

وهكذا نصر الله تعـالى المسلمين في هذه المعركـة وماسبقـها من معارك مع عدم التكافئ في العدد والقـوى مع أعدائهم لتفوق المسلمين في السلاح المعنوي إلـى حد لايمكن أن تُجرى فـيه نسبـة مع الأعداء لخواء الأعداء من ذلك السلاح .

ومازال عقـبة يسير من نصـر إلى نصر رغم قوة أعدائه وكـثرتهم وكونه في بلادهم مع بعـده عن قاعدته « القيـروان » حتى وصل إلى المحيـط الأطلسي فقـال : « يارب لولا هذا البحـر لمضيت في الـبلاد مجاهدا في سـبيلك » ثم قال : اللهم اشْهَدْ أني قـد بلغت الجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لايُعبد أحد من دونك » .

ثم وقف ساعة ، ثم قـال لأصحابه : ارفعوا أيـديكم ، ففعلوا، فقال: اللهم إني لم أخرج بطرًا ولاأشرًا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولايُشرك بك شيء ، اللهم إنا مـعاندون لدين الكفـر ، ومدافـعون عن دين الإسـلام ، فكن لنا ولاتكن علينا ياذا الجلال والإكرام ، ثم انصرف راجعا [1] .

وهكذا نجد عـقبـة بن نافع القائد المجاهد ، وقـد عشنا مـعه في مغامـراته وتنقلاته السريعـة التي قطع بها أكثر من ألف مـيل وخاض

---

(١) الكامل لابن الأثيـر ٣/٣٠٨ - ٣٠٩ ، البيـان المُغرب لابن عـذاري ١/٢٣ - ٢٧، قادة فتح المغرب العربي للواء الركن محمود شيت خطاب ١/١٠٨ -- ١٢٠ .

عدداً من المعارك الضارية كان النصر فيهـا حليفه ، حيث استمر يفتح البلاد ويُرهب الكفار ويظهر عزة الإسـلام ، ويحرر عقول الناس حتى يفهموا دعوة الإسلام .

وندرك من قوله المذكـور مدى هُيامه بالجـهاد وشعوره بالمسـئولية الكبـرى التي حملهـا على عـاتقه نحـو تبليغ الإسـلام وتقوية دولتـه والقضاء على دُول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها .

فهـو يقف على البحر المحـيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعـمور من الأرض من ناحية المغرب ، ثم نجده يُشـهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته ، وهذه الشهـادة تُشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعـالى ، وأنه لـم يكن يسير خـطوة إلا وهو يستلهم التـوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه .

وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهـاد عند عقبة حيث بيَّن أن الحد الـذي يقف عنده الجهاد ، أن يـزول الشرك من الأرض، وأن لايُعبد إلا الله جل وعلا وحده ، ومادام الشـرك قائمًا فإن الجهاد لابد أن يكون موجوداً ، فالجهاد إذًا هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيـان البشري وإخضاع دول العـالم لحكم الإسلام كي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسرًا لكل الناس .

نهاية عقبة بن نافع :

قفل عقبة بن نافع من رحلته الطويلة في الغزو راجعا إلى القيروان من المغرب الأقـصى،ولما صار قريبـا من منطقة القيـروان أرسل غالب جـيـشـه علـى أفـواج إلى القـيـروان،وبقي هـو على رأس الفـوج

الأخير،ومعه مايقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين.

وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش ، فهـو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائمًـا ، وإن هذه التضحيـة الكبيرة جـعلته محبـوبا لدى أفراد جيشـه بحيث لايعصون له أمرًا ويتسـابقون على التضحيـة اقتداء به، وهذه الصفة تعتبـر من أهم عوامل نجاح القائد والإداري في أي عمل يتوجه إليه .

ولما علم الروم بانفراد عقـبة بهذا العدد القليل من جيشـه انتهزوا هذه الفرصـة لمحاولة القضـاء عليه ، وهم يدركون أن وجـوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم ، فتآمروا عليه مع كسيلة البربري فجمعوا لعقبة وأصحابه جمعًا لاقِبَلَ لهم به .

وفي هذا الوقت الذي أدرك فيـه عقبة حصـول الشهادة له ولجنده تظهر البطولات الكبـيرة ، والتطبيق الحيّ لتـوجيهات الإسلام العـالية نحو التضحية وفداء الإسلام بالنفوس .

فقد كان بإمكان عـقبة أن يتسلل مع رفقة قليلة من جـيشه ليلحق بجيشه الكبـير في القيروان، ولكنه آثر بهذه الفـرصة أبا المهاجر الذي كان واليًـا على أفريقية في الوقت الذي عُـزل فيه عقـبة عن الولاية، وكان عقبة قد اصطحبه معه في تلك الغزوات فلما شاهد عقبة الموقف الذي يغلب على الظن فـيـه استـئصـال المسلمين بالكامل قـال لأبي المهاجر: « الْحَقْ بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة » .

وعقبة بهذا الكلام قد لاحظ أمرين مهمّين عنده : أولهما أن يولي

على المسلمين في القيروان من يقوم بشئونهم ، وقد رأى أن أولى الناس بذلك أبا المهاجر ، والأمر الثاني اغتنام فرصة الشهادة التي طالما انتظرها ببالغ الشوق، وقد لاحت له بوادرها في ذلك اليوم .

ولكن أبا المهاجر يرد عليه بقوله : « وأنا أيضًا أريد الشهادة » .

وهكذا كان أبو المهاجر نموذجًا آخر من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا ، واستولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى .

ومن هذا المنطلق أقدم عقبة ومعه عدد قليل على معركة غير متكافئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار ، ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حتى إستشهدوا جميعًا في بلاد « تهوذة» من أرض الزاب .

ويَذكر المؤرخون أن قبور هؤلاء الشهداء معروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها [1] .

إنه موقف عظيم من مواقف الثبات ، ومفخرة كبرى يعتز بها المسلمون ، حيث لايوجد في تاريخ أعدائهم أن جيشا بأكمله يثبت في القتال حتى يُقتل جميع أفراده ، إذ أن المشكلة الكبرى التي يواجهها قادة الأعداء ويضعون لها الحلول المتعددة هي لجوء أكثرهم إلى الفرار حينما تميل الكفة لصالح المسلمين كما مر علينا في مواقف كثيرة .

ولاشك أن هذا الموقف العالي من الثبات قد برهن للأعداء عن صدق المسلمين في دينهم ، وعلو مستواهم في الثبات والصبر، وذلك

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٩ ، البيان المُغرب ١/٢٨ ، قادة فتح المغرب العربي ٢/١١١ .

يجعلهم يترددون في مواجهتهم فيما لو كان عددهم أكبر من ذلك .

وإن مما هو مقـرر في نظام الحروب أن المقاتل المستـقتل الذي يريد الموت لايُقتل حتى يَقـتل عددًا من الأعداء على قدر شجاعـته وقوته، لأن طاقته الكاملة موجهة للإثخان في العدو ، بحيث يلغي من حسابه الدفاع عن النفس ،وهذا يدلنا على أن هؤلاء الثلاثمائة تقريبا قد قتلوا أضعافـهم من الأعداء في تلك المعركة، ولكن الأعداء كـانوا مصرِّين على القضاء عليهم لما يتوقعونه من المكاسب الكبيرة لهم في ذلك.

ولقد كان استـشهاد عقبة بن نافع ومن مـعه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حـدود أربع وستين سنة ، وبهذا ندرك مبلغ القوة التي كان يتمتع بها أسلافنا حيث قام بتلك الرحلة الشاقة وخاض تلك المعارك الهائلة وقد جاوز الستين من عمره .

وهكذا استُشهد هذا القائد العـظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عامـا قضاها في فـتوح شمال أفـريقيا ،ابتـداء بمصر وانتهـاء بالمغرب الأقصى .

وكان قـائدًا بارعًا وإداريًـا ناجحًا ، اسـتطاع بأخـلاقه وحكمـته وحزمه أن يكسب قلوب أتباعه وأن يُوجههم توجيهًا سليما نحو الجهاد وإعزاز الإسلام .

* * *

٥ - فتوحات زهير البلوي -

لما تم لكسيلة البربري القضاء على عقبة بن نافع ومن معه زحف بجيشه على القيروان ، وفي ذلك يقول ابن عذاري : وفي سنة أربع وستين دخل كُسَيلة البُرْنُسي مدينة القيروان، وانتزعها من أيدي المسلمين في محرم ، وذلك أنه اجتمع معه جميع أهل المغرب ، وزحف إلى القيروان ، فعظم البلاء على المسلمين. فقام زُهَير بن قيس خطيبا في الناس، فقال : « يامعشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك ، فقال حنشٌ الصنعاني : لا والله مانقبل قولك، ولالك علينا ولايةٌ ولاعَمَلٌ أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم ، ثم قال : « يامعشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني ، فاتبعه الناس ،ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة،فأقام بها مُرابطا إلى دولة عبد الملك ابن مروان .

وأقبل كسيلة البُرنُسي بعساكره . فلما قرب من القيروان ، خرج من كان فيها هاربين ،إذ لم يكن لهم طاقةٌ بقتاله لعظيم مااجتمع عنده من البربر والروم. فأمَّن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين،وأقام بالقيروان أميرًا على سائر أفريقية والمغرب،وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن وُلّي الخلافة عبد الملك بن مروان .

قال : وفي سنة خمس وستين من الهجرة وُلِّي عبد الملك بن مروان . فلمَّا اشتدَّ سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص

أفريقــية ومن بهــا من المسلمين من يد كســيلة اللعين فقــال: لايصلح للطلب بدم عــقبــة من الروم والبــربر إلا من هو مــثلُهُ دينًا وعقــلا ، فاستشار مع وزرائه فاجــتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، وقالوا : هذا صاحبُ عــقبة ، وأعلمُ الناس بسيــرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه ، فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقة يأمره بالخروج على أعنَّة الخيل إلى أفــريقية ، ليــستنقذ مــن بالقيروان . فكتب إليــه زهير يعَرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم، فأمدَّه عبد الملك ابن مروان بالخيل والرجال والأموال، وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليه . فوفدت الجيوش على زهير ، وتسرَّع الناس معه إلى أفريقية .

قال: وفي سنة تسع وستين أقبل زهير بن قبس البلوي في عسكر عظيم إلى أفريقية .فبلغ كسيلة بن لمزم قدومه إليه وعزمه عليه .فجعل لايهابه ولايخاف منه . وكان كسيلة في خلق عظيم من البربر والروم، أضعاف مامع زهيــر مُضاعفة . فدعا كســيلة أشراف البربر وقال لهم: إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فإن بها قومًا من المسلمين لهم علينا عهودٌ . ونحن نخــاف إن أخذنا القتال مــعهم أن يكونوا علينا. ولكن ننزل على موضع ممس[١] وهي على الماء . فإن عسكرنا خلقٌ عظيم، فإن هزمناهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم ، فــيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر وإن هزمونا كان الجبل منَّا قريبًا والشعْراء [٢] فنتحصن بهما .

قال : ولَمَّا رحل كســيلة عن القيروان ، نزل عليهــا زهير بن قيس

---

(١) هي مدينة في الجزائر في الجنوب الشرقي لجبال أوراس .

(٢) يعني الشجر الملتف .

ثلاثة أيام ولم يدخلها ، وفي اليوم الرابع رحل عنها حتى أشرف على عسكر كسيلة في آخر النهار ، فأمر الناس بالنزول . فلما أصبح وصلى زحف إليه ، وأقبل كسيلة ومن معه فالتقى الجمعان ، والتحم القتال بين الفريقين ، ونزل الضرُّ وكثر القتل في الفريقين، حتى يئس الناس من الحياة . فلم يزالوا كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل . ومضى الناس في طلب البربر والروم ، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم وجدُّوا في طلبهم إلى وادي ملوية بالغرب ، ففي تلك الوقعة ذهب رجال الروم والبربر المشركين ، وقُتل ملوكهم وأشرافهم وفرسانهم . ثم انصرف زهير إلى القيروان فأوطنها . ففزع منه أهل أفريقية ، واشتد خوفهم، فلجؤوا إلى الحصون والقلاع [1] .

في هذا الخبر مواقف منها :

أولا : موقف جهادي مشرف من زهير بن قيس البلوي ، حيث دعا جيش المسلمين إلى جهاد كسيلة البربري، والحقيقة إن الجيش الإسلامي الذي فتح به عقبة بن نافع المغرب موجود في القيروان ولم يفقد منه إلا عقبة والذين استشهدوا معه ، فكان الوضع المقبول أن ينهض المسلمون هناك لجهاد عدوهم ، ولكن أكثرهم أطاع حنش الصنعاني الذي دعاهم إلى العودة إلى المشرق .

ومن تحليل ذلك الواقع يتبين لنا أن عودة ذلك الجيش كانت بسبب القلاقل والاضطرابات التي سادت دار الإسلام آنذاك ، حيث ثار أهل

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٣٠ - ٣٣، الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩ ، وانظر قادة فتح المغرب العربي ١/ ١٥١ - ١٥٧ .

المدينة على يزيد بن معاوية ، وبايع أهل مكة عبد الله بن الزبير وخرج الحسين إلى العراق فكانت حادثة مقتله ، ثم استطاع ابن الزبير بعد موت يزيد أن يستولي على الحجاز والعراق، ولعل حنش الصنعاني رأى أن المشاركة في إصلاح دولة الإسلام من داخلها أولى من الجهاد في أطراف دولة الإسلام، ومن أدلة ذلك أنه انضم إلى ابن الزبير لما رأى أنه أحق بالخلافة ، ولايُظَن به ولابأولئك المجاهدين أنهم تركوا ساحة الجهاد تفضيلا للراحة وهروبًا من لقاء العدو وهم الذين كانوا يتحرقون شوقا إلى الجهاد .

نهاية زهير البلوي وأصحابه :

عاد زهير إلى القيروان بعدما وطد أقدام المسلمين في تلك المنطقة، وحينما أَمِنَ على وضع المسلمين في القيروان سار ببعض الجيش إلى برقة ، وكان يخشى عليها من هجوم الروم حيث لم يترك بها إلا حامية صغيرة .

وقد حصل ماكان يخشى منه زهير حيث أغار الروم على برقة ونهبوا أموالها وسبوا بعض رجالها ، ووصل زهير إلى برقة والروم ينقلون الأسرى من المسلمين إلى مراكبهم ، فاستغاث به المسلمون فأسرع إلى نجدتهم على غير استعداد منه للقاء العدو ، وكان جيشه متعبا من السفر فلم يستطيعوا مقاومة الروم ، ومع وقوعهم في هذا الظرف السيء فإنهم ثبتوا للروم رغم قلتهم وكثرة أعدائهم حتى استشهد زهير وأصحابه [١] .

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٩ - ٣١٠ ، البيان المغرب لابن عذاري ١/ ٣٣ .

وهكذا وقع زهير البلوي في الوضع نفسه الذي وقع فيه عقبة بن نافع الفهري حيث باغتهما العدو على غير استعداد منهما فكانت النتيجة الظفر بالشهادة ، وإن كان ذلك قد أثر على وضع المسلمين في أفريقية .

وبهذا انتهى جهاد زهير بن قيس البلوي ، التقي العابد والقائد الشجاع، بعدما أزال طغيان البربر والروم في شمال أفريقيا فرحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ولعل الذي شجع الروم على الهجوم على برقة - إضافة إلى انشغال زهير بالجهاد في المغرب - ماحدث في دار الإسلام من فتن داخلية، حيث كانت الحرب قائمة - آنذاك - بين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما وعبد الملك بن مروان .

* * *

٦ - فتوحات حسان بن النعمان

ذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن مروان ولاه على أفريقية، وقدمه على عسكر فيه أربعون ألفا ، وقال له : إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، واخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه .

فتح قرطاجنّة : [١]

قال ابن عذاري : قدم أفريقية في عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قطٌّ أفريقية بمثل مادخلها حسان بن النعمان ، فلما حصل بالقيروان ، سأل أهل أفريقية : من أعظم الملوك بها قدرا ؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية فسار حسان حتى نزل عليها . وكان بها من الروم خلقٌ لايُحصى كثرةً . فخرجوا إليه مع ملكهم ، فقاتلهم حسان حتى هزمهم ، وقتل أكثرهم . ثم نازلها حتى افتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية .

فلما قدم حسان إليها ، وقتل فرسانها ورجالها ، اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها . وكانت لهم مراكب كثيرة ، فمنهم من مضى إلى صقلية ، ومنهم من مضى إلى الأندلس . فلما انصرف عنها حسان وعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب الملك عنها بادروا إليها فدخلوها . فرحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف . فقتلهم قتلا ذريعًا ،وسباهم ونهبهم . وأرسل لمن حواليها فاجتمعوا إليه مسارعين خوفًا من عظيم سطوته ، وشدة

---

(١) ذكر ابن عذاري أنها مدينة عظيمة وأنها عن مدينة تونس على اثني عشر ميلا .

بأســه . فلمــا أتوه ولم يبق منهم أحــدٌ أمــرهم بتــخــريب قــرطاجنة وهدمها. فـخربوها حتى صارت كأمس الغـابر. ثم بلغه أن النصارى اجتمعوا وأمدهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة ، فرحل إليهم حسان حتى لقيهم . وقاتلهم حــتى هزمهم ، وقتل الروم والبربر قتلاً ذريعًا ، وحمل عليــهم أعنة خيله ، فما ترك من بلادهم مـوضعًا إلا وطئه . ولجــأ الروم هاربين خائفين إلى مـدينة باجة فـتحصــنوا بها، وهرب البربر إلى إقليم بونة . وانصرف حسان إلى القيروان .

معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة :

قال ابن عذاري : لَمَّا دخل حسان الـقيروان ، أراح بها أيامًا. ثم سأل أهلهــا عمن بقي من أعظم ملوك أفـريقية ليـسير إليـه فيبـيده أو يُسلم، فدلوه على امرأة بجبال أوراس يـقال لها الكاهنة ، وجميع من بأفريقيــة من الروم منها خائفون ، وجــميع البربر لها مطيــعون : فإن قتــلتهــا دان لك المغرب كله ولم يبق لك مـضادٌ ولامـعاندٌ ، فـدخل بجــيوشــه إليهــا . وبلغ الكاهنة خــبره فـرحلت من الجبل في عــدد لايُحصى ، ولايبلغ بالاستقصاء وسبـقته إلى مدينة باغاية . فأخرجت منها الروم ، وهدمـتها ، وظنت أن حســانا يريد مدينة ليتحــصن بها منها. فبلغ خبرها حسانًا فنزل بوادي مسكيانة . فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور . فكان هو يشرب من أعلى الوادي، وهي من أسفله . فلمَّا توافت الخيل دنا بعضهم من بعض، فأبى حسان أن يقاتلهــا آخر النهــار . فبات الفــريقان ليلتــهم على سروجــهم . فلمَّا أصبح الصباح التــقى الجمعان ، فتقاتلوا قتــالاً لم يسمع بمثله، وصبر

الفريقان صبرًا لم ينته أحدٌ إليه ، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين . وقتلت الكاهنة العرب قتلا ذريعًا ، وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه . وسُمّيَ ذلك الوادي وادي العذارى. واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس . فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يُخبره بذلك ، وأن أمَمَ المغرب ليس لها غايةٌ ولايقف أحدٌ منها على نهاية ، كلما بادت أمةٌ خلفتها أممٌ ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم . فعاد له جوابُ أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب ، فورد عليه في عمل برقة . فأقام بها وبنى هنالك قصوراً تُسمى إلى الآن بقصور حسان .

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين . فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلانرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها ، حتى ييئس منها العرب، فلا يكون لهم رجوعٌ إليها إلى آخر الدهر ، فوجهت قومها إلى كل ناحية ، يقطعون الشجر ، ويهدمون الحصون ، فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحدًا من إطرابلس إلى طنجة، وقُرى متصلة ، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونًا من إقليم أفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله . فخربت الكاهنة ذلك كله، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلقٌ كثيرٌ ، مُستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية .

وكانت الكاهنة ، لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان ، وحبست عندها خالد بن يزيد. فقالت له يومًا : مارأيت في الرجال أجمل منك ولاأشجع ! وأنا أريد أن أرضعك ، فتكون أخًا لولدي ! وكان لها ابنان أحدهما بربريٌ والآخر يونانيٌ . وقالت له : نحن جماعة البربر لنا رضاعٌ : إذا فعلناه نتوارث به ، فعمدت إلى دقيق الشعير ، فَلَتَّتْهُ بزيت، وجعلته على ثَدْيَيْها . ودعت ولديها ، وقالت : كُلا معه على ثَدْيَيَّ، ففعلا ، فقالت : قد صرتم إخْوَةً [1] .

وقد علل اللواء الركن محمود شيت خطاب انهزام المسلمين رغم كثرتهم بأسباب من أقربها أن المسلمين اغتروا بكثرتهم واحتقروا عدوهم خاصة وأنهم بقيادة امرأة منهم وهي الكاهنة، فلم يبذل المسلمون مايلزم لتلك المعركة من جهد وطاقة بينما استمات أعداؤهم حيث جعلوا تلك المعركة معركة حياة أو موت [1] .

وأهم من ذلك إن كان هذا هو الدافع للهزيمة مايترتب عليه من تخلف معية الله تعالى لعباده بالنصر والتأييد إذا اغتروا بكثرتهم وغفلوا عن ذكر الله جل وعلا واستمداد النصر منه ، فيصبح المسلمون هم وأعداؤهم في ميزان معنوي واحد لتخلف نصر الله تعالى عن الجميع ، وتبقى بعد ذلك الموازين المادية ، وقد تفوق فيها الأعداء في تلك المعركة .

---

(١) البيان المغرب ١/ ٣٤ - ٣٧ ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٢ .

(٢) قادة فتح المغرب ١/ ١٨٥ .

معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة :

قال ابن عذاري : ثم إن حسانا توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قِبَل أمير المؤمنين عبد الملك . فدعا حسان عند ذلك برجل يثق به، وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب . فقرأه وكتب في ظهره : إن البربر متفرقون . لانظام لهم ولا رأىَ عندهم فاطو المراحل، وجد في السير وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زادًا للرجل، ووجهه بها إلى الأمير حسان . فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيراً حتى خرجت الكاهنة ناشرةً شعرها، تضرب صدرها، وتقول: ياويلكم! يامعشر البربر ! ذهب مُلْكُكم فيما يأكله الناس فافترقوا يمينًا وشمالاً يطلبون الرجل، فستره الله تعالى حتى وصل حسانًا، فكسر الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد ، فوجده قد أفسدته النارُ. فقال له حسان : ارجع إليه ، فقال الرجل : إن المرأة كاهنةٌ :لايخفى عليها شيء من هذا [1] . فرحل حسان بجنوده إليها . وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم . ورحل إليها حسان. فلما كان في الليل ، قالت لابنيها : إني مقتولةٌ ، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعًا موضوعًا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث حسانًا . فقال لها خالد : فارحلي بنا وخلي له عن البلاد، فامتنعت ، ورأته عارًا لقومها . فقال لها خالد وأولادها: فما نحن صانعون بعدك ؟ فقالت : أما أنت ياخالد فستُدرك ملكًا عظيمًا عند الملك الأعظم وأما أولادي فيدركون سلطانًا مع هذا الرجل الذي

(١) وجاء في رواية ابن الأثير : فعاد إلى خالد فكتب إليه كما كتب أوّلاً وأودعه قربوس السرج .

يقتلني ويعقدون للبربر عِزاً ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا إليه، فركب خالد وأولادها في الليل ، وتوجهوا إلى حسان . فأخبره خالدٌ بخبرها، وأنها علمتْ قتلها، وقد وجهت إليك بأولادها. فوكَّل بهما من يحفظهما ، وقدَّم خالدًا على أعِنة الخيل. وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقالت: انظروا مادهمكم فإني مقتولةٌ. ثم التحم القتال، واشتد الحرب والنزال . فانهزمت الكاهنة ، واتبعها حسان حتى قتلها.

وكان مع حسان جماعةٌ من البربر استأمنوا إليه . فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب. فأجابوه وأسلموا على يديه. فعقد لولدي الكاهنة ، لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس ، وأخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر . وانصرف حسان إلى مدينة القيروان ، بعدما حسن إسلامُ البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين . وفي هذه السنة استقامت بلاد أفريقية لحسان بن النعمان ، فدوَّن الدواوين ، وصالح على الخراج ، وكتبه على عجَم أفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية [1] .

في هذا الخبر مواقف وعبر ، فمن ذلك : أولاً ماقام به خالد بن يزيد القيسي من الكتابة إلى حسان بن النعمان وجعله ذلك الكتاب في خبزة ثم في قربوس السرج .

وهذا التصرف من خالد بن يزيد يدلنا على شدة حزمه واحتياطه للأمر حتى لايقع كتابه بيد أحد جواسيس الكاهنة فتفسد خطة

---

(١) البيان المغرب ١/ ٣٤ - ٣٨ ، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٣ .

المسلمين ويتعرض هو وبقية أسرى المسلمين للأذى والقتل من تلك الحاكمة الجبارة .

وقد أفاد في هذا الكتاب أن أهم عنصر من عناصر القوة لدى الكاهنة قد زال عنها وهو اجتماع قبائل البربر عليها حيث إنهم متفرقون وأن نظامهم قد اختل وأصبحت الفرصة مناسبة للقضاء على قوة أولئك البربر .

ثانيًا : في سياسة تلك المرأة الكاهنة الهوجاء عبرة ، فإنها فقدت سمعتها شيئًا فشيئًا حيث أساءت معاملة أهل تلك البلاد وظلمت وتجبَّرت ، ثم خطر ببالها أن العرب إنما يريدون البلاد لما فيها من عمران وأموال فأمرت أتباعها بهدم العمران وقطع الأشجار حتى أحالت المدن العامرة إلى خراب ، فكان ذلك وبالاً عليها حيث انقلب عليها أهل البلاد وأصبحوا يتمنون عودة المسلمين ليخلِّصوهم من ظلمها .

وهكذا هيأ الله للمسلمين الظروف الملائمة والممهدة للقضاء على ذلك العدو المتمكن ، وهذا يدلنا على أن المسلمين لم ينتصروا لمجرد قوتهم وشجاعتهم وإنما كان العامل الأول في انتصاراتهم المتوالية هو ماشتهروا به من العدل والأمانة والرحمة وسائر مكارم الأخلاق التي جعلت الشعوب المغلوبة على أمرها تتمنى قدوم المسلمين عليهم ليخلصوهم من بطش الظالمين وقهرهم .

ثالثًا : مما حدث بعد هذه المعركة من الحوادث المشتملة على مواقف حميدة أن جماعة من زعماء البربر جاؤوا إلى حسان بن

النعمـان مستـأمنين فقبل أمـانهم بشرط أن يعطوه اثني عشـر ألفًا من قـبـائلهم يجـاهدون مع المسلمين ، فـأجـابوه وأسلمـوا على يديه ، وأحضروا له ذلك العدد ، فولَّى ولَدَي الكاهنة على ذلك الجيش .

* * *

٧ - فتوحات موسى بن نُصَير -

لقد آل أمر المغرب بعد حسان بن النعمان الأزدي إلى آخر قادتها الفاتحين وهو موسى بن نصير اللخمي ، وذلك في أوائل سنة ست وثمانين تقريبًا ، وكانت ولايته من قِبَل أمير مصر عبد العزيز بن مروان.

ولما أكمل موسى بن نصير استعداد جيشه توجه من مصر إلى أفريقية وقام خطيبا في جيشه وكان مما قاله : « إنما أنا رجل كأحدكم فمن رأى مني حسنة فليحمد الله تعالى ، وليحضّ على مثلها، ومن رأى مني سيئة فلينكرها ، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون ، وقد أمر الأمير أكرمه الله تعالى لكم بعطاياكم وتَضْعيفها ثلاثا ، فخذوها هنيئًا مريئًا ، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا وله عندنا قضاؤها على ماعزّ وهان، مع المواساة إن شاء الله تعالى ولاحول ولاقوة إلا بالله » (١) .

وهذه خطبة عظيمة قدَّمها موسى بن نصير بين يدي ولايته أمام جنده، وقد قرر فيها قواعد العدل التي بها تستقر أمور الولايات ، ويَعرف بها الجنود والرعية أن الأمير سيسير بالعدل بين الناس، والإنصاف حتى من نفسه .

وإذا استقرت أمور الناس على العدل فإنهم يستخرجون كل مالديهم من مقدرة في العمل ، فيصبح الواحد منهم عن عشرة أو أكثر ممن لايُبرزون إلا بعض طاقتهم .

---

(١) قادة فتح المغرب ١/٢٢٨ عن الإمامة والسياسة ٢/٦١ - ٦٢ .

إن إظهار العدل والالتزام بتطبيقه هو أول علامات نجاح المسئول لأنه بالتمثل بهذا المبدإ يضمن جنودا مخلصين له ولقضيته، كما أنه يضمن خلو عمله من المشكلات والمآزق التي تنتج غالبا من تفضيل الأدنى على الأعلى ، وإبراز أصحاب القدرات الضعيفة والكفاءات القليلة مع تجاهل أصحاب الكفاءات العالية الذين يبذلون طاقات كبيرة في العمل .

ولقد كان موسى بن نصير موفقًا حينما وجه جنده إلى تقويم أعماله التي يقوم بها ، ثم القيام بحمد الله تعالى على الحسنات ، والنصيحة للقائد بالإكثار منها والمداومة عليها، وإنكار السيئات وبيان الأخطاء . . وذلك أن الإشادة بالحسنات والتذكير بها مما يدفع المسئول إلى مضاعفتها والالتزام بها ، وبيان الأخطاء في حينها مما يدفع المسئول إلى تصحيحها والحذر من تكرارها .

إن الأخطاء إذا تُركت فلم تعالج في أول حدوثها فإنها تترك آثارا سيئة ، وقد يترتب عليها أخطاء أخرى ، وقد تتكرر إذا لم يتنبه لها المسئول أو يُنبهه لها ناصح مخلص .

جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين :

ما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى وجّه ثلاث سرايا لإخضاع المتمردين من البربر ، وحيث إنه لم يواجه منهم تجمعا كبيراً فإنه اكتفى بإرسال هذه السرايا ، وفي ذلك كسب للوقت حيث عاد قادة تلك السرايا بالنصر والغنائم ، وكان أهمَّ هذه المواقع التي اخضعها جبلُ « زغوان » الذي كان منيعا وكان البربر يلجئون إليه .

ولما تم إخضاع المغرب الأدنى وجَّـه ألف فارس إلى قبيلتي هوَّاره وزناتة من البـربر في المغـرب الأوسط فأغـاروا عليـهم وقـتلوا منهم وسبوا، ثم عرضـوا الصلح فصالحوهم ، وكذلك صالح مـوسى قبيلة كتامة .

ثم هاجم موسى قبيلة صنهاجة وهي من القبائل المتمردة ، فقتلهم قتل الفناء وسبَى منهم كثيرا .

أما أهل سجومة الذين سـبق أن أوقعوا بالمسلمين على غرة منهم وقتلوا عقبة بن نافع ومن معه فقد غزاهـم موسى بعشرة آلاف، وأعطى اللواء ابنه مروان ، حتى إذا كـان بمكان يقال له « سجن الملوك» خلَّف الأثقال وتجرد في الخيول حـتى انتهى إلى نهر يقال له : « نهر ملويه» فقطع النهـر ، فلما وصل إليهم وجـدهم قد تأهبوا له فـاقتتلوا قـتالا شديدًا في جـبل شديد لايوصل إليـهم إلا من أبواب معلومـة، وبعد قتال استـمر ثلاثة أيام انهزم أهل سجومة ففـتح المدينة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة بن نافع (عياضًا وعثمان وأبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم من قَتَلَة أبيهـم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة من كبارهم .

هذا وإن انتـصـار المسلمين على أهل تلـك المدينة مع كـونهم في جبل منيع لايوصل إليه إلا من أبواب معلومة يعـتبر مثالا على تفوق المسلمين الباهر من الناحية العسكرية .

وهكذا أخضع مـوسى قبائل البربـر التي شقت عصا الطاعـة بعد مسير حسان بن النعمـان إلى المشرق ، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن خضعت بَعْدُ للمسلمين .

فتح مدينة طنجة :

ثم سار موسى يفتح المدن ويُخضع القبائل حتى دانت له بلاد المغرب كلها، ولم يبق أمامه إلا منطقة « طنجة » وكانت تخضع للأمير الرومي جوليان . فزحف نحوها موسى وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد ومازال يقاتل البربر ويفتح المدائن حتى بلغ مدينة طنجة ، فلما دنا منها بث السرايا لإخضاع ماحولها من البلاد ، وحاصر طنجة حتى افتتحها ونزلها وهو أول من نزلها واختط فيها من المسلمين فأسلم أهلها وجعلها محط إقامة للمسلمين كالقيروان .

أعمال ابن نصير الإصلاحية :

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعدما نشر الإسلام في البربر، وقد أبقى عندهم من يعلمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وولى على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد وترك عنده تسعة عشر ألفا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة ، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم .

ولم يبق من بلاد المغرب بيد الكفار إلا منطقة سبتة التي كانت في مواجهة الأندلس فكان أهل الأندلس يمدونها بالمؤن والسلاح حتى استطاع أهلها أن يصمدوا أمام المسلمين فتركها موسى بن نصير لجولة قادمة،ولكن كان قد أمِن على بلاد المغرب من حولها في طنجة حيث أبقى طارق بن زياد ومعه ذلك الجيش الكبير من البربر والمسلمين[1] .

(١) البيان المغرب ١/ ٤٠ - ٤١ ؛ الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢ .
وانظر قادة فتح المغرب ١/ ٢٢٨ - ٢٣٧ .

وهكذا تبين لنا ماقام به موسى بن نصير من الأعمال الجهادية في بلاد المغـرب بأجـزائه الثـلاثة الأدنى وهـو بلاد تونس والأوسط وهو الجزائر والأقصى وهو المغرب حـاليا تقريبًا ، وتم ذلك في وقت قليل نسبيّـا لأن القادة السابقين من عهـد عقبة بن نافع إلى عهـد حسان بن النعمان قد مهدوا لذلك وفتـحوا أكثر هذه البلاد ، ولكن البربر كانوا كلما فارقهم قائد قوي اغتنموا الفرصة فنقضوا عهودهم ، وكذلك كان الروم يغتنمون عهود الضعف للمسلمين وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية فيعودون إلى احتلال البلاد مرة أخرى .

لكن موسى بن نصير في الفتح الأخير قد قضى على هذا الوضع المضطرب حيث أبقى حاميات قوية مـن العرب ومسلمي البربر ، كما قام بتطهير بعض الأوكار القريبة الـتي كان القادة العرب يتركون البربر فيهـا لمناعتها مـثل جبل « زغوان » في تونس ، كمـا أنه أسس قاعدة حربية مهمة في أقصى المغـرب وذلك في طنجة حيث أبقى فيها طارق ابن زياد في جيش كبيـر ، وبقي هو في القيروان في تونس فلم تطمع أي قبيلة من البربر في الانتقاض على المسلمين بعد ذلك ، إلى جانب أنه قام بتكثيف الجهود في الدعوة الإسلامية بين البربر حتى تحولوا إلى جنود مخلصين للإسلام ودولته .

لقد كـان طغاة تلك البـلاد وأصحاب الأهواء المنحـرفة يغـتنمون فتـرات الضـعف وانتقـاض سيـادة المسلمين ليقـوموا بدعـوة العامـة وجمعهم، فتتـحول البلاد إلى حالة من الفوضى والاضطراب ويحاول الأقوياء انتهاب الضعفاء ، ولكن ماأن يأتي قائد مسلم قوي حتى يفيء

إليه العقلاء طلبا لتخليص البـلاد من تلك الحال السيئة ، ولذلك كان هؤلاء خير معين لحسان بن النعمان حينما عاد مرة أخرى ليطهر البلاد من حكم الطغـاة المفسدين في الأرض فـتمكن بمعونتـهم من تخليص البلاد من طغاة البربر والروم كما سبق .

ثم فرح هـؤلاء العقلاء بمـجيء موسى بن نصـير لِمَا رأوا فـيه من الحزم والعزم القوي والعـدل الشامل فيسَّروا له مهمـة تطهير البلاد من أوكار الهدم والتدمير .

ثم لما زال حكم الطغاة سارع البربر إلى الدخول في الإسلام حتى تكوَّن منهم جيوش قوية كانت خير معين للعرب في حماية تلك البلاد من طغـاة البربر والروم ، حـيث لم يكن بإمكـان العرب لقلتـهم أن يبسطوا نفوذهم على شمال أفريقـيا ، تلك المنطقة الواسعة فكانوا قبل انتشار الإسلام بين البربر كلما اخضـعوا منطقة انتقضت عليهم مناطق أخرى .

وكان من حسنات موسى بن نصيـر إسراعه في تكوين جيوش من مسلمي الـبربر وحسن اخـتيـاره للقادة منهم من أمـثال طارق بن زياد الذي طار ذكره بعد ذلك في فتح الأندلس .

لقد استطاع ابن نصير بمعونة من معه من القادة والدعاة أن يحوِّلوا بتـوفيق الله أولئك التـائهين الذين كـانوا يصرفـون طاقتـهم في تأمين شهـواتهم الدنيـوية إلى مجـاهدين يحملون بأفكارهم الهـدف الأعلى الذي يقاتلون من أجله وهو إعلاء كلمـة الإسلام، ثم إنهم لم يُحرَموا

مع العمل لهذا الهدف من الحصول على ما يريدون من الدنيا بالغنائم المباحة التي يصرفونها فيما يرضي الله تعالى .

وهكذا يستطيع القائد المسلم الذي نور الله بصيرته أن ينتزع من الطغاة الذين يتزعمون الناس أعداداً هائلة من الشباب الذين كانوا يعملون من غير هدف إلا الخضوع لتوجيهات هؤلاء الأبالسة الذين يغتنمون نداء الشهوات لدى هؤلاء الشباب فيحققون لهم بعض مايريدون في مقابل سيادة الفوضى وترويع الآمنين ، وقصر الفكر على متطلبات الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة .

لقد استطاع ابن نصير وأمثاله من القادة العظماء بالتزامهم بالهدف الإسلامي واستقامتهم على المنهج الرباني أن يحرروا أولئك العبيد من رقّ عبودية الطغاة المتجبرين ، وأن يحولوهم إلى جنود يبذلون طاقتهم في عملية التحرير هذه ليحرروا أقواما آخرين مازالوا يرزحون تحت نير العبودية الخانقة ، بدلا من أن يبذلوا طاقتهم في الإغارة على الآمنين وقطع السبل وإشاعة الفوضى والاضطراب في حياة البشر، فتحول المغرب كله في الأخير إلى قاعدة انطلاق كبرى نحو فتح الأندلس ونشر الإسلام فيها ونقل أفرادها من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر جل جلاله ، بعدما كان المغرب مسْرَحًا للغارات الهمجية التي لاهدف لها إلا تأمين متطلبات هذه الحياة الفانية، وإرضاء الطغاة الظالمين الذين انتهكوا حقوق البشر ، وسلبوا من الإنسان حرية التفكير، وحوّلوا أفراد مجتمعهم إلى قطاعات من العبيد تُفكر حيث يصوغ لها التفكير زعماؤها ، وتنطلق في السلوك حيث يرسم لها

خطة العمل كبراؤها ، من غير هدف أعلى يحكم تصرفات القادة والجنود .

جهود ابن نصير في الجهاد البحري :

هذا وإلى جانب ماقام به موسى بن نصير من إخضاع بلاد المغرب فإنه توجه باهتمامه إلى الجهاد البحري حيث أكمل العمل الذي بدأ به حسان بن النعمان من إعداد مصنع كبير لبناء السفن في تونس وإصلاح الميناء فيها ، ثم أمر بصناعة مائة مركب .

وبعد الانتهاء من إعداد المراكب وجَّه حملة بحرية بقيادة ابنه عبدالله إلى جزيرة « صقلِّية » فافتتح مدينة فيها وعاد سالما غانما .

كما أنه بعث عياش بن أَخْيَل إلى « صقلية » فأصاب مدينة «سرقوسة» وبعث أيضًا عبد الله بن مرة إلى جزيرة « سردانية» فافتتح مدائنها .

وكذلك جهز موسى ولده عبد الله إلى جزيرتي «ميورقه» و«منورقه» في البحر الأبيض بين صقلية والأندلس فافتتحهما [1] .

وهكذا كان موسى بن نصير موفقا حينما قام ببناء ذلك الأسطول والشروع في غزو جزر البحر حتى يقطع الطريق على الروم الذي كانوا دائمًا يهددون أمن شمال أفريقيا ، وبهذه الغزوات البحرية الناجحة وبالقضاء على معاقل الروم في ساحل البحر الأبيض انقطعت حملات الروم التي سبق ذكر شيء منها .

---

(١) قادة فتح المغرب ١/ ٣٨ - ٤٠ نقلاً عن الإمامة والسياسة ٢/ ٧٠ - ٧١ النجوم الزاهرة ١/ ٢١٦ ، العبر ١/ ١٠٤ ، شذرات الذهب ١/ ٩٨، البداية ٩/ ٧٧ .

ولقد كان هذا الاهتمام بالغزو البحري وماتم من النجاح فيه ممهدا للغزو الأكبر والفتح الأعظم الذي تم في الأندلس بعد ذلك .

* * *

مواقف وعبر
فى
فتـــوح الأنـدلـس

– جهاد طريف بن مالك –

كان مما هيأه الله تعالى للمسلمين أنه كان بين جوليان حاكم مدينة «سبتـة» وبين لُذريق حاكم الأندلس عداوة ومنافسة ، فـأرسل جوليان إلى موسى بن نصير رسالة يعرض فيها تسليم مدينة سبتة ويدعوه لفتح الأندلس ، وقد صادف ذلك رغبة في نفس موسى وطموحًا منه لنشر الإسلام في تلك البلاد .

كتب مـوسى إلى الوليد بن عبـد الملك يخبـره بما جرى بينه وبين حاكـم سبـتة ويسـتأذنه في غـزو الأندلس ، فكتب إليه الوليـد: بأن يختبرها بالسرايا وأن لايغرر بالمسلمين ، فبعث موسى عند ذلك رجلا من البـربر وهو طريف بن مـالك ويكنى بأبي زرعـة في مائة فـارس وأربعمـائه راجل ، فجـاز البحر في أربعـة مراكب حـتى نزل ساحل البحر في الأندلس فـيما يحاذى « طنجـة » وهو الذي عرف بعد ذلك بجزيـرة طريف فأغار مـنها على مايـليها حـتى بلغ مدينـة « الجزيرة الخضراء» ورجع سالما ، وذلك سنة إحدى وتسعين للهجرة .

وقد كانت هذه الرحلة استطلاعية لمعرفة قوة العدو وطبيعة البلاد.

* * *

فتوحات طارق بن زياد

في رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف بقيادة طارق بن زياد ، وقد استفاد المسلمون من المعلومات التي أتى بها طريف بن مالك حيث سار طارق بجيشه من سبتة حتى نزل بالجبل المقابل لها والذي سمي فيما بعد «جبل طارق» ، بينما سار طريف قبل ذلك من طنجة ونزل فيما يقابلها حيث سمي جزيرة طريف ، ثم اتجه شرقا نحو جبل طارق، ولعله رأى أنه أفضل مكان لنزول الجيش الإسلامي لمناعته وقربه من سبتة مركز الانطلاق .

وقد سار طارق بالدفعة الأولى من جيشه على السفن الأربع، ووجد عند الساحل بعض الروم وقوفا فمنعوا المسلمين من النزول، فلم يقاومهم لأنه قصد الدخول بسرِّية حتى يتم اجتماع جنده ويتأهب للقاء عدوه فعدل إلى مكان آخر فيه وعورة فقام هو وجنده بتسهيله حتى نزلوا ولم يعلم بهم أهل البلاد ، ثم استقر في الجبل الذي رآه مكانا ملائما للحرب ورجعت السفن تنقل بقية الجيش حتى توافَى جميع أصحابه عند الجبل وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين .

وقبل أن أذكر ماقام به طارق بعد ذلك فإنني أحب أن أشيد بهذه الخطة الحربية الممتازة التي سار عليها طارق بتوجيه موسى بن نصير حيث استطاع اختيار المكان الملائم للتحصن من الأعداء حتى يتم اجتماع الجيش كله، إذ أن هناك احتمالا كبيرًا أن يهاجم الأعداء جيش المسلمين قبل تكاملهم، فوجودهم في ذلك الجبل يعطيهم مقدرة على

الدفاع عن أنـفسهم ، ثم إن مما يُشـاد به مقـدرة طارق وجيـشه علي التكتم عن الأعداء حـيث دخلوا ولايعلم الأعداء أنهم مـحاربون، ثم مازالوا يتجمعون في ذلك الجبل حـتى كمل عددهم من غير أن يشعر به عدوهم مع أن تلك المنطقة كان بها أمير من قبل لذريق ومعه جيش معدٌّ لحماية تلك المنطقة .

ثم سار طارق منحـدرا نحو الجـزيرة الخضراء ، وقـد جرت بينه وبين القوط مناوشات حـربية انتصر فيها المسلـمون، وكان قائد الروم «تُدْمير » الـذي كان واليا على تلك المنطقة ، وقـد كتب إلى «لُذريق» يعلمه بأن قوما لايدري من أهل الأرض أم من أهل السـماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليَّ بنفسك .

وهكذا وصف المـسلمين بوصف يدل عـلى فـزعـه منهم، وأن قدومهم كان مـفاجأة كبرى له ،وكونه يتشكك في حقـيقة أمرهم هل هم من أهل الأرض أم من أهل السمـاء ، يدلنا على ماكان يتـمتع به أولئك الغـزاة المسلمون من حـيوية وثابة واندفـاع عارم أذهل الـقوط وجعلهم في حيرة من أمرهم .

إن أولئك الكفار لـم يألفوا ذلك الهجوم الصاعق والارتماء المتفاني في أحضان الموت فـشكُّوا في كون أولئك المهاجمين مـن جنس البشر العاديين .

المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس :

لما علم حـاكم الأندلس لُذريق بزحف المسلمين بدأ يجهـز جيـشا كبـيرًا لـيزحف به نحـو الجنوب ، وعلم طارق بأخبـار هذا التجـمع

الكثيف،- وهذا يـدل على دقة رصد المسلمين لتـحركـات أعدائهم - فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك ويستمده ، فأرسل إليه قرابة خـمسـة آلاف مجـاهد بقـيادة طريف بن مـالك ، حـملتهم سـفن المسلمين، وكان موسى بن نصـير مذوجّه طارقا أخـذ في عمل السفن حتى صـارت معه سفن كـثيرة ، فحمل إلـيه خمسة آلاف ، فـتوافى المسلمون عند طارق اثني عشر ألفا .

وقد جـمع لذريق جيشـا كبيـرًا هو مابين مائـة ألف وأربعين ألفا حـسب اختـلاف الروايات ، وقـد كـانوا مـغرورين بكثـرتهم وقـوة استعدادهم حـتى إنهم حملوا معهم الحبال علـى دواب خاصة لكتاف أسرى المسلمين .

واستعد الفريقان للقتال ، وكان أكثر جيش طارق رَجَّالةً حيث لم يكن معهم من الخيول إلا القليل بينما كان جيش القوط يملكون الكثير منها [1] .

هذا وقد قال المؤرخ أحمد بن محمد المقَّري في بيان أحداث هذه المعركة ومابعدها :

وقال الرازي : كـانت الملاقاةُ يوم الأحـد لليلتين بقيَـتَا من شـهر رمـضان ، فـاتصلت الحربُ بينـهم إلى يوم الأحد لخـمس خلَون من شوال بعد تتمة ثمانـية أيام ، ثم هزم الله المشركين ، فقتل منهم خلق عظيم ، أقامت عظامُـهم بعد ذلك بدهر طويل ملبـسة بتلك الأرض،

---

(١) انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقَّري ١/ ٢٢٤ - ٢٤٢ .
وانظر التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجِّي / ٤٧ - ٦٧ .

قالوا : وحاز المسلمون من عسكرهم مايجلُّ قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة ، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفْيءَ وخَمَّسَه ، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع، وتسامع الناس من أهل برّ العُدْوَة [1] بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه، وخَرَقُوا البحر على كل ماقدروا عليه من مركب وقُشْر [2] ، فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ، ولحقوا بالجبال [3] .

وهكذا عَرَضَتْ كتب التاريخ هذه المعركة عرضًا موجزًا جدًا بينما كانت معركة كبيرةً وحاسمة حيث فتحت الباب للمسلمين ليتوغلوا بعد ذلك في فتح الأندلس دون مقاومة كبيرة إلا في معارك محدودة .

ولاشك أن تضحيات كبيرة قد قدمها المسلمون خلال تلك الأيام الثمانية التي ظنوا فيها فناءهم كما جاء في بعض الروايات ،كما أنهم قد توجهوا في تلك المعركة بإخلاص وروح معنوية عالية غطَّت على جميع جوانب النقص الكثيرة بالمقارنة بأعدائهم ، وإن أبلغ وصف لشجاعة هؤلاء المجاهدين المذهلة ، وإقدامهم الذي لاتَحدُّ منه العقبات ولاتقف دونه السدود قول حاكم تلك الولاية في وصفهم « لايُدرَى

---

(١) يعني في المغرب الأقصى .

(٢) القشر الزورق الصغير .

(٣) نفح الطيب ١/ ٢٤٣، وانظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٢/ ٨ .

أمِنْ أهل الأرض أم من أهل السماء » وإذا كـان لايدري فإننا نقول : بل هم قدر الله تعالى النافذ وقضاؤه الذي لايرد .

ومما يؤسف له أن كـتب التاريخ لم تسـجل أحداث هذه المعـركة الكبيرة إلا في بضعة أسطر ، ولقد كنَّا نود أن نعرف الأحداث اليومية لتلك المعركة وماجرى فيها من تضحيات ومواقف عالية من الصمود.

لقد كان المسلمون مقْـدِمين على خوض تلك المعركة الهائلة وهم فعـلا يتصورون إحدي الحـسنيين . . فإما شـهادة ينالون بها المقـامات العليا في الآخرة وإما نصر ينالون به المقام الرفيع في الدنيا إلى جانب ماأعده الله تعالى لهم في الآخرة ، فلذلك كان قـتالهم قتال المستميت وأصبـحت طاقتهـم أعلى بكثير من طاقـة أعدائهم، وصـبرهـم على الشدائد أشد بكثير من صبر أعدائهم ، فكانت لهم نهاية المعركة .

هذا ولم يكن موسى بن نصير وهو المسئول الأول عن ذلك الفتح بمعزل عن أحداث هذه المعركة ومابعدها ، بل كان شديد الاهتمام بأمر أولئك المجـاهدين ، فكان إلى جـانب ماقـام به من إمـدادهـم بالجنود معـهـم بدعائه وتضـرعه إلى الله تعـالى ، كما قـال ابن الكردبوس : «وكـان موسى بن نصـير حين أنفـذ طارقـا مُكبّا على الدعـاء والبكاء والتضرع إلى الله تـعالى والابتهال إليه في أن ينصـر جيش المسلمين، وماعُلِم أنه هُزِم له جيش قط » (١) .

وهذا يدلنا على صـفة من صفـات موسى بن نصـير المهـمة التي كانت وراء انتصـاراته العظيمة ، وهي قوة صلته بالله تعـالى وشعوره

(١) التاريخ الأندلسي / ٦٧ ، عن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس / ٤٦ - ٤٧ .

الصادق بأن النصـر بيد الله سبـحانه وإن اختلفت مـوازين التكافؤ في المعركة .

فتح عدد من مدن الأندلس :

قـال المقري : ثـم أقبل طارق حـتى نزل بأهل مـدينة شَـذُونة ، فامتنعوا عليـه ، فشدَّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرّهم ، فـتهيأ له فتـحهـا عَنْوة ، فحـاز منها غنائم ، ثم مـضى منها إلـى مُدَوَر ، ثم عطف على قَرْمُـونة . فمر بعينه المنسـوبة إليه ، ثم مال على إشبـيلية فصالحه أهلها على الجزية ، ثم نازل أهل أسـتجة وهم في قوة ومعهم فل عسكـر لذريق ، فقاتلـوا قتالا شـديدًا حتى كـثر القـتل والجراح بالمسلمين، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عـليهم ، فانكسروا ، ولـم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حـربًا مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صـاحبها ، وكان مـغترًا سيء التدبيـر، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحـده ، فصادف طارقًا هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفـه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخـذه وجاء به إلى العسكر ، فلما كاشَفَه اعتـرف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ماأحَبَّ ، وضرب عليه الجزية ، وخلَّى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه.

إلى أن قال : فـفرَّق طارق جيـوشه معهم من أسـتجة ، فـبعث مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة ، وكانت من أعظم مدائنـهم، في سبعـمائة فـارس ، لأن المسلمين ركبـوا جمـيعًـا خيل العجم، ولـم يبق فـيهم راجلٌ ، وفضلت عنهم الخيلُ ، وبعث جـيشًا آخر إلى مالقـة ، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيـرة، وسارهو في معظم

الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة ، وقد قيل : إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه ، لامغيث ، قالوا : فكمنوا بعُدوة نهر شقندة في غيضة أرزشامخة ، وأُرسلت الأدلاء فأمسكوا راعيَ غنم فسُئل عن قرطبة فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليْطلة ، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها ، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها إلا أنه فيه ثغرة [1] ووصفها لهم ، فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل ، وأقبل المسلمون رويدًا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا ، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور ، فلم يظهروا عليه ضيقًا بالذي نالهم من المطر والبرد ، فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعًا أو أقل، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقًا ، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها ، فأراهم إياها ، فإذا بها غير متسهلة ا لتسنُّم ، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها[2] من التعلق بها ، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها ، وأعان بعض الناس بعضا حتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خارج ، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس ، ففعلوا ، وقتلوا نَفَرًا منهم، وكسروا أقفال الباب ، وفتحوه ، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة، فصعد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه ، وقد بلغ الملك دخولهم

(١) ثغرة : مكان يمكن الدخول منه .

(٢) أفنانها : أغصانها .

المدينة ، فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه ، وهم زهاء أربعمائة ، وخرج إلى كنيسة بغربي المدينة ، وتحصن بها ، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل ، ودافعوا عن أنفسهم ، وملك مغيث المدينة وماحولها .

قال : وأما من وُجِّه إلى مالَقَة فإنهم فتحوها ، ولجأ عُلُوجها إلى جبال هنالك ممتنعة ، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلبيرة ، فحاصروا مدينتها غرناطة ، فافتتحوها عنوة .

قال : ومضى الجيش إلى تدمير ، وتدمير : اسم العلج صاحبها ، سميت به واسم قصبتها أريولة ، ولها شأن في المنَعة ، وكان ملكها علجا داهية ، وقاتلهم مضحيا ، ثم استمرت عليه الهزيمة في فُحصها ، فبلغ السيف في أهلها مبلغًا عظيمًا أفنى أكثرهم ولجأ العلج إلى أريولة في يسير من أصحابه لايغنون شيئًا ، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال ، وتصدر قدَّامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه ، فكره المسلمون مراسه [1] لكثرة من عاينوه على السور ، وعُرضوا على السور ، وعرضوا عليه الصلح ، فأظهر الميل إليه ، ونكَّر زيَّه ، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول ، فصالحهم على أهل بلده ، ثم على نفسه ، وتوثق منهم ، فلما تم له من ذلك ماأراد عرفهم بنفسه ، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه ، وأخذهم بالوفاء بعهده ، وأدخلهم المدينة ، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرِّية ،

---

(١) مراسه - بكسر الميم - معالجة شأنه بالقتال ومعاناة ذلك .

فندموا على الذي أعطوه من الأمان ، واسترجحوه (1) فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم ، فسلمت كورة تُدْمير من مَعَرَّة المسلمين (2) بتدبير تُدْمير ، وصارت كلها صلحا ليس فيها عَنْوة ، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح ، وخلفوا بقصبة البلد رجالا منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُليطلة (3) .

وهكذا سار طارق وقواده يفتحون تلك البلاد بسرعة مذهلة وبدون مقاومة كبيرة .

لقد كان أهل الأندلس كسائر البلدان المتحضرة يعيشون آنذاك تحت حكم طغاة متجبرين ، وكان أولئك الطغاة يتصارعون على الحكم من أجل امتصاص خيرات البلاد والتجبر على الناس وتحويل المستضعفين إلى مستعبدين أذلاء ،فكان أهل البلاد يتمنون الخلاص من أولئك المتجبرين،ولعلهم سمعوا بما ناله أهل المغرب على يد المسلمين الفاتحين من أمن ورخاء وعدالة ، فأصبحوا يتمنون الخلاص من طغاتهم على أيدي المسلمين ، ولذلك وجدناهم يفتحون لهم صدورهم قبل أن يفتحوا لهم بلادهم ويسارعون في تقديم الولاء لهم، ويَخْذلون حكامهم الذين عانوا منهم الأمَرَّين،ولقد انتشر الإسلام سريعا على إثر انتشار المسلمين في الأندلس فكانت أخلاق المسلمين وعدالتهم وتفانيهم في خدمة دينهم وترفُّعهم عن الدنيا مفتاح قلوب أهل تلك البلاد .

---

(1) استرجحوه : عدُّوه راجح العقل حسن التدبير .

(2) أي إيذاؤهم لهم .

(3) نفح الطيب ١/٢٤٣ - ٢٤٥ ، وانظر البيان المغرب ٢/٩-١٠ .

وفي خبر تدمير ومعاملة المسلمين لصاحبها منقبة عالية للمسلمين حيث وفَى المسلمون بعهدهم لذلك الحاكم الأندلسي مع سبق خديعته إياهم ، وذلك لشدة اهتمامهم بالوفاء بالعهد الذي ظلوا طيلة فتوحاتهم في الشرق والغرب مشهورين به ، ومن المؤكد أن سمعتهم العالية في ذلك قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس وإلا فإنه من المستبعد أن يغامر ذلك الحاكم بنفسه حيث خرج للتفاوض مع المسلمين ثم عرَّفهم بنفسه بعد تمام الصلح .

إنه في حساب الربح والخسارة من الناحية الحربية قد يقال إن المسلمين قد خسروا بهذا الصلح سبع مدن لم يكن فيها إلا قوة ضعيفة للأعداء وأنه كان بإمكان المسلمين أن يستأصلوا أعداءهم وأن يستولوا على تلك المدن بما فيها من متاع الدنيا ، ولكن المسلمين في حساب الإسلام قد كسبوا مكسبًا عظيمًا حيث تقدموا شوطًا عاليًا في الرقي الأخلاقي الذي يعتبر من أهم مقومات الدعوة الإسلامية .

ولاشك أن هذا السلوك الحميد وأمثاله مما يفسَّر به سرعة دخول أهل تلك البلاد في الإسلام ، وتحوُّلهم إلى جنود يخدمون الإسلام ويقيمون صرح دولته في بلادهم .

* * *

فتوحات موسى بن نصير

أما بقية فتوح الأندلس فقد شارك فيها موسى بن نصير أمير المغرب، وهو الذي بعث طارق بن زياد لفتح الأندلس .

وقد كان موسى بن نصير قد أشفق على وجود المسلمين في الأندلس حيث توغل طارق في الفتح شمالا وبقي شرق البلاد وغربها لم يُفتح فخشي أن يطوقه الأعداء ، وجاء في بعض الروايات أن طارقا كتب إلى موسى يستمده لما خشي من إحاطة الأعداء به .

وقد عَبَر موسى مضيق جبل طارق في جيش قوامه ثمانية عشر ألفا وذلك في رمضان من عامَ ثلاثة وتسعين للهجرة ، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية .

وبعد وصوله إلى الجزيرة الخضراء استشار مستشاريه في خطة الفتح وذلك في المسجد الذي بناه هناك وهو الذي عرف بمسجد الرايات لكثرة الرايات في ذلك الجيش ، وبعد هذه الشورى اتجه إلى الشمال الغربي من الأندلس وذلك لحماية الفتح الإسلامي مما يبيِّته له الأعداء ولفتح بلاد لم يصل إليها الفتح الإسلامي ، ففتح مدينة شذونه ثم اتجه إلى قرمونة وكانت من أشد مدن الأندلس تحصينا وقد حاصرها المسلمون وأبى أهلها أن يستسلموا ، وكان في معية موسى جماعة من حلفائه من أتباع يوليان حاكم سبتة فأخبروه أن هذه المدينة لاتفتح إلا بحيلة ، فوجَّه إليها جماعة يوليان وطرقوا بابها على أنهم فلول من جيش البلاد .

وسار خلفهم موسى بخيله، ففتحوا لهم الباب وهجم عليهم المسلمون فقتلوا الحراس واستولوا على المدينة .

وهكذا تم فتح تلك المدينة بجهود يسيرة بتوفيق الله تعالى ثم بسداد الرأي وحسن التدبير من قائد المسلمين .

ثم توجه موسى بجيشه إلى أشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل ملك القوط ، فلما ملكوا البلاد نقلوا العاصمة إلى طليطلة ، وقد حاصر المسلمون أشبيلية عدة أشهر ثم فتحها الله لهم [1] .

وقد اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة «ماردة» التي كانت من أشد مدن الأندلس تحصينا،حيث إن عرض سورها اثنا عشر ذراعًا وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا،ولحصانتها فإن فلول جيش القوط المنهزمة قد لجأت إليها،فتجمع فيها جيش قوي ، وقد حاصرها موسى عدة شهور دون جدوى،ولكن موسى لم ييأس حيث استخدم دبابة من صنع المسلمين آنذاك حمل فيها الجنود إلى السور فبدؤوا ينقبون في السور لإحداث ثغرة فيه ، فلما استطاعوا المضي فيه قليلا ثار عليهم جنود العدو فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسُمِّي ذلك البرج برج الشهداء.

وبالرغم من عدم وصول المسلمين إلى مايريدون من فتح السور

---

(١) نفح الطيب ١/٢٥١ - ٢٥٣ ، وانظر البيان المغرب ٢/١٣ والتاريخ الأندلسي / ٦٧- ٧٤ .

فإن أهـل البلاد وافقـوا على الصلح لما رأوا من إصـرار المسلمين على حصارهم (١).

هذا وإن في هذا الخبر دلالة على تفوق المسلمين من الناحية المادية حيث استطاعوا صناعة الدبابات حسب الإمكانات المتاحة لهم في ذلك الوقت ، فلم يكتفوا بقوتهم المعنوية الفائقة بل أضافوا إليها الاستعداد الحربي القوي المناسب لعصرهم .

ومن الملاحظ سـهولة فـتح الأندلس وأن بعض تلك الفـتوحـات كانت عن طريق الصلح، وذلك لأن القوط قد تشـتتوا وزالت دولتهم وهم الذين كانوا يتحمـسون للقتال ويدافعون عن دولتـهم ، أما عامة أهل الأندلس فقـد شعروا بالأمن والطمأنينة والعـدالة بوجود المسلمين فكانت مقاومـتهم إياهم ضعيفـة ، ولكن مع هذا فلاشك أن المسلمين قد عانوا مـشقة من السفر المتـواصل والإقدام على مغامرات مـجهولة النتائج وفي بلاد يَقْدمونها لأول مرة ويجهلون دروبها ومفاجآتها .

هذا وقد عـرضَتْ كتب التاريخ أخبـار هذه الفتوح بإيجـاز شديد لايبين إلا قليلاً من مواقف المسلمين التي لاشك أنها كانت عالية وقيمة بناء على مانتج عنها من سرعة استتباب الأمن وانتشار الإسلام وسرعة اندماج أهل البلاد مع الفاتحين .

إن جهودا كـبيرة قد بُذلت في الدعوة إلى الإسـلام كان لها الأثر في كل هذه النتائج ،وإن من أبرز هذه الجـهود القدوة الحسنة والتـمثيل الصادق للإسلام،وخاصة من القادة والأمراء،الذين كانوا على جانب

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٢ ، وانظر البيان المغرب ٢/ ١٤ ، والتاريخ الأندلسي / ٧٤ .

كبير من فهم الإسلام والرغبة الصادقة في نشره والحكم به بين الناس.

هذا ومما ينبغي الإشادة به أن هذه الفتوحات الكبيرة المتواصلة جرت من موسى بن نصير وقد جاوز الخامسة والسبعين من عمره، ومع ذلك فإنه كان في همة الشباب وحيويتهم حتى إنه قد عزم في نهاية فتح الأندلس على فتح البلاد الأوربية وغزو القسطنطينية من الغرب لولا أن الوليد بن عبد الملك أمره بالتوقف والقدوم إلى دمشق وشدَّد عليه في ذلك .

ومما يدل على صلاحه أنه دعا الله تعالى أن يرزقه الشهادة أو يموت في المدينة فأجاب الله دعاءه ، حيث مات في المدينة وهو ذاهب إلى الحج برفقة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك عام سبعة وتسعين وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد (١) .

(١) التاريخ الأندلسي ١٢٧ عن نفح الطيب ١/ ٢٨٣ ، معالم الإيمان ١/ ٢٠١، رياض النفوس ١/ ٧٨ .

جهاد ولاة الأندلس في أواخر العهد الأموي

لما تولى إمارة الأندلس السمحُ بن مالك الخولاني عام مائة كان له نشاط واسع في الجهاد في جنوبي فرنسا ، وكان بينه وبين أهلها معارك عديدة، منها معركة بين المسلمين وحاكم « أقطانية» وقد اشتد فيها القتال واستُشهد فيها عدد كثير من المسلمين منهم الوالي السمح ابن مالك الخولاني . وذلك في يوم التروية أو عرفة سنة اثنتين ومائة.

ولما تولى إمرة الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي في صفر عام ثلاثة ومائة استأنف الجهاد في جنوبي فرنسا خلف جبال البُرْت، وقد توغل في بلاد الفرنجة واستشهد سنة سبع ومائة (١) .

معركة بلاط الشهداء :

تولى إمرة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في شهر صفر من عام اثني عشر ومائة ، وقد واصل حركة الجهاد الإسلامي خلف جبال البرت وتوغل في فرنسا ، وكانت له مع الإفرنج مواقع كثيرة، إلى أن غزاهم في عام خمسة عشر ومائة ، وكان الفرنج قد استعدوا للمسلمين بجيش كبير مجموعٍ من عدة دولٍ أوربية بقيادة شارل مارتل، وقد التقى المسلمون بأعدائهم في شهر رمضان المبارك من ذلك العام ، واستمرت المعركة حوالي عشر أيام ، وكانت نهايتُها استشهاد قائد المسلمين . عبد الرحمن الغافقي وعدد كبير من جيشه ، وقد سُمِّيت المعركة لذلك « بلاطَ الشهداء » .

---

(١) نفح الطيب للمقري ٢١٩/١ - ٢٢٠ ، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ١٨٥ - ١٩١ .

كانت هذه المعـركة حـاسمةً بين المسلمين والنصـارى حيث تعـثَّر الجهاد الإسلامي بعدها ، وكانت نتيجـتها خسارةً كبرى لأوروبا حيث حُرِمَتْ من نور الإسلام وحـضارة المسلمين ، ولذلك اعتبـرها الكُتَّاب الغربيون المنصفون نكبةً كبيرة أصـابت أوروبا وضربةً عنيفة حرَمَتْها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان (١) .

وهكذا وصلت إلينا أحـداث هذه المعركة الكبـيرة ومـاسبقـها من معارك بشكل مـوجز مقتضب ، ولاشك أن وراء استشـهاد هذا العدد الكبير من المسلمين أحداثٌ ضخمة ومواقف عالية .

* * *

(١) نفح الطيب ٤/ ١٤ - ١٥ ، التاريخ الأندلسي / ١٩٣ - ٢٠٣ .

جهاد الدولة الأموية الأندلسية

- من مواقف عبد الرحمن الداخل -

بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية في العالم الإسلامي وخلَفتها الدولة العباسية استطاع أحد شباب بني أمية أن يفرَّ من قبضة العباسيين وأن يُكَوِّن له دولة في الأندلس لاتخضع لدولة العباسيين ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد دخل الأندلس في سنة ثمان وثلاثين ومائة فأقام فيها دولة لبني أمية بعد حروب بينه وبين معارضيه ويعرف بعبد الرحمن الداخل لدخوله الأندلس (١) .

ولقد كان عهد عبد الرحمن الداخل عهد حروب داخلية بينه وبين المناوئين له ، وقد تمكن بعد صراع مرير طويل من القضاء عليهم جميعا، وقد كان يتمتع بالشجاعة والصبر والدهاء ، ولقد كان لكفاءته القيادية أثر واضح في نجاحه ، ولما كان ليس من منهج هذا الكتاب الخوض في المعارك التي جرت بين المسلمين فإنني لم أتعرض للكتابة عنها ، غير أني سأذكر شيئا عن الحرب التي كانت بينه وبين أحد مناوئيه وهو سليمان بن يقظان الكلبي لأن سليمان هذا قد استعان على عبد الرحمن الداخل بملك الإفرنج شرلمان، وبهذا يكون سليمان الكلبي قد خان الأمانة ومكن لأعداء الإسلام من بلاد المسلمين .

وفي بيان هذه الحرب يقول الدكتور محمد السيد الوكيل :

رأى شرلمان أن الفرصة سانحة لغزو الأندلس ، وكان هذا هو

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣٦٢ - ٣٦٣ ، البيان المغرب ٢/ ٤٧ .

حلمه الذي كـان يحلم به وبخاصـة وأنه قد أنهى فتـوحاته في أوربا، بإخـضاع السكسـون ، وليس عليـه إلا أن يحقق حلمـه، في إقامـة إمبراطورية بإخضاع الأندلس .

عـبرت جـيوش شـرلمان جبـال البرانس، واسـتولى على مـدينة بمْبَلُونة، واستمر في زحفه على مـدينة سرقسطة ، ولكنه وجدها وقد أغلقت أبوابهـا في وجهـه، حيث أحـسَّ سكانها بقـيادة الحـسين بن يحـيى، بخـيانة سلـيمـان بن يقظان، وأنه يريد أن يـسلم المدينة إلى شرلمان ملك الفرنجة .

كان شـرلمان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، وكان يمني نفـسه بتـحـقـيق هـذا الحلم، حـتى واتتـه الفـرصـة، فـخـرج في ربيع ١٦٣هـ-٧٧٨م وكان يعـتقد أن مـدينة سرقسطـة ستفـتح له أبوابها، ولكنه وجدها قـد أغلقت أبوابها، وتحصن بهـا أهلها، إما رغـبة من حسين بن يحيى في الانفراد بحكم المدينة أو غـضبًا منه على سليمان، لأنه خان الأمانة ، ولم يرع حق عبد الرحمن الذي ولاه على المدينة.

واضطر شرلمان إلى محاصرة سـرقسطة ، ولكن الحصار قد طال، حتى يئس شرلمان من فتحها، وإذا أضفنا إلى ذلك أن أنباء قد وصلت شرلـمـان ، تحمل إليـه أنباء اضطراب قـد وقع في بلاده مما اضطره إلى رفع الحصار عن سـرقسطة ، وعاد إلى بلده وهو يحمل معـه سليمان ابن يقظان ، لأنه أخل بوعده ، ولم يسلِّمه المدينة كما وعده .

انسحـب شرلمان عائدًا بخـيبـة الرجاء ، ولما وصل مـدينة بمبلونة سحب منهـا حامـيتهـا التي كان قد تركـها فيـها بعـد الفتح ، وهدم

أسوارها، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل قد استعد للانتقام من شرلمان، فحرض عليه قبائل البشكُنس، وتعاونت هذه القبائل مع المسلمين ، وأبناء سليمان الذين كانوا يحاولون إنقاذ أبيهم .

وكانت المفاجأة المفزعة لجيش شرلمان في ممرات جبال البرانس الضيقة، حيث انقضَّت عليه الجيوش بالسهام والحجارة، حتى قضوا على مؤخرة هذا الجيش الذي جاء به ليفتح الأندلس قضاء تامًا، وقُتل كثير من قواده العظام ، وقتل كذلك قائده ورفيق حياته (رولان) واشتد حزن شرلمان على هذا القائد ، وكان مقتل هذا القائد موضوعًا لأنشودة من شعر الملاحم الفرنسي ، تعرف بأنشودة رولان .

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان بن يقظان من إنقاذه وتخليصه من يد الملك شرلمان، ورجعا به إلى سرقسطة .

وكانت هزيمة شرلمان هذه درسًا قاسيًا ، وتجربة جانبها الصواب ، حيث حاول تجربة حظه في فتح بلاد إسلامية ، فباء بالفشل، ورجع بخيبة الأمل (١) .

وهكذا استعمل عبد الرحمن الداخل دهاءه فسلط القبائل المجاورة لجبال البرانس ونظمهم مع المسلمين ليقوموا بهجوم مباغت لجيش شرلمان من مجاهل تلك الجبال فأبادوا كثيرًا من جيشه، فكانت تلك الحرب أنجح من المواجهة ولم تكلف المسلمين خسائر .

وفي هذه المعركة عبرة فيما حصل لسليمان بن يقظان الذي خان

---

(١) الأمويون بين الشرق والغرب / ٢/ ١٤٢ عن كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس وكتاب الأمويون أمراء الأندلس .

الأمانة وتحالف مع الأعـداء فقد فشل في تلك المحاولة وأصـبح أسيرًا لدى من تحالف مـعه، ثم اضطر ابناه إلى أن ينضما بـجيشهمـا لجيش عـبـد الرحــمن الداخل ليـخلصـا أباهمـا من الأسـر، وهكذا تمكن عبـدالرحمن من تسليط أعـدائه على أعدائه حتى ظـفر بعدوه الكبـير شرلمان .

رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل :

نظرًا لما حـققـه عبـد الرحمن الداخل من إقـامة دولة أمـوية في الأندلس والقضاء على جـميع مناوئيه مع أنه كان طريد العـباسيين من قطر إلى قطر فـإنه قد نال إعجـاب أمير المؤمنين أبـي جعفـر المنصور وأثنى عليه بالرغم من العداء القائم بين العباسيين والأمويين، فقد ذكر أبو عبد الله محمد ابن عذاري المراكشي أن أبا جعفر المنصور قال يوما لبعض جلسـائه : أخبروني عن صقر قـريش من الملوك ! قالوا : ذاك أميـر المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعـداء وحسم الأدواء .

قال : ماقلتم شيـئا ، قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا، قـالوا: فعبد الملك بن مروان ، قال: ماقلتم شيئا، قالوا: ياأمير المؤمنين فمن هو ؟

قال : صقـر قريش عبد الرحـمن بن معاوية ، الذي عبـر البحار وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه، فمصَّر الأمصار وجند الأجناد ، ودوَّن الدواوين ، وأقـام ملكا عظيمـا بعد انقطاعـه بحسن تدبيره وشدة شكيمته .

إن معـاوية نهض بمركب حـمله عليه عـمر وعـثمـان ، وذلَّلاله

صعـبه، وعبد الملك ببـيعة أُبرم عقـدها، وأمير المؤمنين بطلب عِـتْرته واجتماع شـيعته، وعبد الرحـمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مـستصحب لعزمـه، وطد الخلافة بالأندلس ، وافـتتح الثغـور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين .

فقال الجميع : صدقت والله ياأمير المؤمنين (١).

وقـد توفي عـبـد الرحـمن الداخل بعـد أن أقـام دولة قـوية في الأندلس سنة اثنتين وسـبعين ومـائة ، وخلَفـه ابنه هشام على إمـارة الأندلس (٢) .

* * *

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٦٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥/ ٨٣ ، البيان المغرب ٢/ ٤٧ .

- مواقف هشام بن عبد الرحمن في الأعمال الجهادية والإصلاحية - .

مواقفه الجهادية :

من ذلك ماذكره ابن عذاري من أن أمير الأندلس هشام بن عبدالرحمن جهز جيشا بقيادة أبي عثمان عثمان بن عبيد الله بن عثمان إلى بلاد أَلَبَة والقلاع ، وأنه لقي بها أعداء الله بجموعهم متوافرين فهزمهم الله على يديه ، وقُتلوا في السهل والوعر وكان عدد قتلى الأعداء أكثر من تسعة آلاف وذلك في عام ستة وسبعين ومئة .

ثم ذكر أنه في هذه السنة جهز جيشا بقيادة يوسف بن بخت إلى جِلِّيقيَّة فالتقى ببرمود الكبير قائد الأعداء في تلك الناحية، وأنه جرت بينهم معركة انهزم فيها عدو الله وغنم المسلمون عسكره، وبلغ عدد قتلى الأعداء عشرة آلاف سوى من قتلوا بعد المعركة .

ثم ذكر أنه في سنة سبع وسبعين ومائة بعث جيشا بقيادة عبدالملك ابن عبد الواحد بن مغيث وذلك في فصل الصيف إلى أرض الروم التي تقع شمال الأندلس ، وأنه بقي شهوراً يقاتل الأعداء ويخرب الحصون ، ثم أوقع بمدينة أربونة ، وكان فتحا عظيما مشهورا، بلغ فيه خمس السبي خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين .

ثم ذكر ابن عذاري أنه في سنة تسع وسبعين ومائة أغزى الإمام هشام بن عبد الرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة، حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية . فبلغه أن إذفُونش قد حشد بلاده ، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من المجوس وغيرهم ، وأنه عَسْكَرَهم مابين حيز جليقية والصخرة، وأنه

أذن لسكان السهل بالتفرق في شواهق جبال السواحل. فقدَّم عبدالكريم فَرَج بن كنانة في أربعة آلاف فارس، ثم رحل في إثره، فألفى أعداء الله ، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله، فقتل حماتهم، وأسر جماعة منهم ، ثم أمر بعد انحلال الحرب بقتلهم، وبث الخيل في القرى ، فانتسفت جميع ما أَلْفَتْه من زروعهم، وخربت مامرت عليه من عمارتهم. وتقدم بعد ذلك إلى وادٍ يُقال له كُوثيَّة ، فلقي به غُنْدُماره وهو في ثلاثة آلاف فارس فقاتله حتى انهزم عسكره، وأخذ غُنْدُماره أسيرًا، وقُتل من أصحابه عددٌ كثيرٌ. وأصاب العسكر جميع مافي تلك الناحية. وتقدم مستنجزًا لإذفونش، فلما بلغه قصده إليه تنحَّى عن الجبل الذي كان فيه منحازًا عنه إلى حصن له، كان قد بناه وأتقنه على وادي نلُون ، فتقرب منه عبد الكريم مُقْتفيًا لأثره ، لا يمر بمنزل فيما بينه وبينه إلا حرَّقه، ولا بمال إلا أصابه، حتى أطل على الحصن فانتقل منه إلى حصن مُلكه . واحتل عبد الكريم بالحصن الذي انتقل منه، فألفى فيه الأطعمة وضروب الذُّخر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فَرَج بن كنانة، في عشرة آلاف فارس ، يقفو أثره، فلما قرب منه ، انهزم عنه وأسلم جميع عُدَّته وذخره ، فغنم المسلمون جميع ذلك [(١)] .

وهذا الاهتمام الجيد من الأمير هشام بن عبد الرحمن يدل على عنايته بحماية الدولة الإسلامية وسعيه في إقرار الأمن للمسلمين، فإن الاستسلام لحياة الركود وتعطيل الجهاد يجعل الأعداء يطمعون في

(١) البيان المغرب ٢/٦٣ - ٦٥ .

الإغارة على بلاد المسلمين ويأخذونهم على حين غفلة منهم، أما إذا كانت ذكريات جهاد المسلمين ماثلة في أذهانهم فإنهم يرغبون في السلامة ولايفكرون في غزو بلاد المسلمين .

مواقفه الإصلاحية :

من أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ماذكره ابن عذاري في ترجمته قال: وكان هشام يبعث إلى الكُوَر قومًا عدولاً يسألون الناس عن سير العمال، ثم ينصرفون إليه بماعندهم ، فيقع نظره بهدم ماتكشفه المحنة له منهم . وإعترض له يوما متظلمٌ من أحد عماله، فبدر إلى الشاكي من رجال العامل من ترخاه شفقة منه على العامل. فبعث إلى الشاكي وقال له : احلف على كل ماظلمك فيه، فإن كان ضربك ، فاضربه، أو هتك لك سترًا، فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً ، فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حدًّا من حدود الله ! فجعل الرجل لايحلف على شيء إلا أُقيد منه . فكان زجره هكذا لعماله أبلغ فيهم من النكال والأدب. وكان كريما عادلاً فاضلاً متواضعًا عاقلاً ، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته ، ولازلةٌ في أيام صباه. ومن كرمه أنه كان يصرُّ أموالاً في صُرر ، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد ، فإذا وجد واحدًا يصلي في مسجد أو لايصلي وضع بين يديه صرةً ، حتى كثرت عمارة المساجد .

وكان -رحمه الله ! - قد نظر في بنيان قنطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة . وتولى بناءها بنفسه، وتعطى الأجرة بين يديه. قال ابن وضاح : لما بنى هشام القنطرة ، تكلم بعض الناس

فيـه، وقالوا : إنما بناها لتصـيُّده ونُزهته! فـحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة .

قال القاضي أبو معاوية : أدركتُ صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدَّعة والعافيـة والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثلٌ. وكان يحضر الجنائز ، ويزاحم فيها، كأنه أحد من الناس، تواضعًا.

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب بن عمران، ، فسجَّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشـام ، وقـال لـه : إن القـاضي سـجَّل عليَّ فـي داري التي كنت أسكنها، وأخرجني عنها ! فقال له هشام : وماذا تُريد مني ؟ والله لو سـجَّل عليَّ القاضي في مـقعـدي هذا ، لخـرجت عنه ! انقيـاداً منه للحق، رحمة الله عليه ! [1] .

فهـذه أمثلة من اهتـمام الأميـر هشام بن عـبد الرحمـن بالدعوة والإصلاح والعدل ، وإذا قرنت هذه الاهتمـامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها .

* * *

(١) البيان المغرب ٢/ ٦٦ .

مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

تولى الإمرة بعد أبيه هشام الذي توفي في عام ثمانين ومائة، وقد كانت له مواقف جهادية ، فمن ذلك ماذكره المؤرخ ابن عذاري قال: وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر ، فتقدم عبد الرحمن بالجنود وتوافت عليه الحشود وحفَّت به المطَّوعة ، فألْفَوا الطاغية خارجا إلى بلاد المسلمين، ودارت بينهم حروب شديدة ثبَّت الله فيها أقدام المسلمين فانهزم المشركون ، وكانت فيهم مقتلة عظيمة، ففني أكثرهم .

وقال أيضا : وفي سنة أربع وتسعين ومائة غزا الحكم إلى أرض الشرك . وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفَرَج (وهي وادي الحجارة) . وكان العدوُّ بسبب اشتغال الحكَم بماردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام قد عظمت شوكته ، وقوى أمرُه . فشنَّ الغارات في أطراف الثغور، يسبي ويقتل. وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة ، وهي تقول : واغوثاه ياحكَم ! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنَّا ، حتى استأسد العدوُّ علينا ! فلما وفد عباس على الحكم ، رفع إليه شعراً يستصرخه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخها به، وأنهى إليه عباس ماهو عليه الثغر من الوهن والْتِيَاث الحال .فرثى الحكم للمسلمين، وحمِيَ لنصر

الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيا إلى أرض الشرك ، فأوغل في بلادهم ، وافتتح الحصون ، وهدم المنازل، وقتل كثيرًا ، وأسر كذلك ، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم ، يصلحون به أحوالهم ويفدون سباياهم، وخصّ المرأة وآثرها ، وأعطاهم عددًا من الأسرى عونًا . وأمر بضرب رقاب باقيهم ، وقال لأهل تلك الناحية وللمرأة: هل أغاثكم الحَكَم ؟ قالوا : شفا والله الصُّدُورَ ، ونكى في العدوّ، وماغفل عنّا إذ بلغه أمْرُنا ! فأغاثه الله وأعزّ نصره !

ثم ذكر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة أن الحكم أغزى عمّه عبد الله البلنْسيّ الغزوة الشنيعة المشهورة، وكانت ببرشلونة: ألفى المشركين قد حلُّوا بها يوم احتلاله، وكان يوم الخميس ، فأراد من معه مناشبة الحرب ، وتشوفوا للقتال ، فمنعهم حتى إذا كان في اليوم الثاني ، وهو يوم الجمعة وقت الزوال ، أمر بتعبئة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود، وقام فصلى ركعتين ، ثم نادى في الناس ، وركب هو ومن معه ، وناهض أهل الشرك، وماأحسبه فعل ذلك إلا فقهًا وعلمًا وتأسيًا بحديث النبي ﷺ حيث أمر بالقتال في تلك الساعة، فإنّ فيها تهبُّ الأرواح ، وتفتح أبواب الجنة ، وتستجاب الدعوات . فمنحهم الله أكتاف المشركين ، وانهزموا . وقتل عامتهم ، وفرّق جمعهم . فلما أقلع عن القتال وإنجلتْ الحرب، نصب قناةً طويلةً ، فاثبتت في الأرض ، وأمر بالرُّؤوس ، فجُمعت وطُرحت حَوالَيها حتى غابت القناةُ فيها ولم تظهر .

ثم ذكر في حوادث سنة مائتين أن الحكم أغزى وزيره عبد الكريم ابن مغيث إلى بلاد المشـركين، فدخلها وتوسطها ، وأهلك معـائشها ومرافقهـا، وحطم زُروعها، وهدم منازلها وحصونهـا، حتى استوفى جـميع قـرى وادي أرون. فحـشدت إليـه الطاغـية - دمـرها الله - وإنجلبت النصرانيـة من كل مكان ، وأقبلت الجمـوع ، ونزلت بعدوة نهر أرُون، وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مـخائض الوادي ، ونهض أعداء الله إليهم، فقاتلوهم على كلّ مخـاضة منها ، فجالدهم المسلمون عليـها مجالدة الصابرين المحتسـبين ، واقتحم أعداء الله النهر إليهم ، فـاقتتلوا على مخاضته ، ثم حمل المسلمون عليـهم حملة صادقةً ، فأضغطوهم في المضايق ، وأدخلوهـم على غير طريق ، فـأخذتهم السـيوف والطعن بالرماح والغـرق في المياه ، فقـتل من المشركين عـددٌ عظيمٌ لايُحصى كثـرةً ، ومات أكثـرهم بالتردي ودرس بعضـهم بعضا، وصـاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالـرماح والسيوف إلى القـذف بالحجارة ، وأكـثروا الحُرَّاس بالمخائض ، ووعـروها بالخشب، وحفروا الحـفائر ، وخندقوا الخنادق . ونزلت الأمطار ، وكـان قـد فـرغ ماكـان لأعـداء الله من المرافق ، وضـاقت الحال أيضا بـالمسلمين ، فقـفل عبد الكـريم ظافراً لسبع خلون من ذي القعدة [1] .

في هذه الأخبـار مثل من اهتمـام أمير الأنـدلس الحكم بن هشام بأمر الجهاد وحماية دار الإسلام .

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٢ - ٧٥ .

وفي خبر المرأة التي استغاثت بالحكم مثل من الغرب يشبه ماجرى في الشرق من تلك المرأة التي استغاثت بأمير المؤمنين المعتصم بالله العباسي ، ولقد اشتهر خبر المعتصم ولم يشتهر خبر الحكَم لسهولة تداول تاريخ المشرق ، ولقد قام كل واحد من الأميرين بالجهاد وإغاثة المرأة التي استغاثت به .

وهكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في التقلب في نعيم الدنيا ، وإنما هي في إغاثة الملهوفين وإنقاذ المكروبين وإعزاز الإسلام والمسلمين وإذلال الكفر والكافرين .

من مواقفه الإصلاحية :

من أخبار اهتمامه بالعدل ماذكره ابن عذاري في ترجمته قال: كان الحكم - رحمه الله - شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته، وكان مبسوط اليد، وكان له قاض كفاه بورعه وعلمه وزهده، فمرض مرضا شديداً، فاغتم الحكَم لمرضه ، فذكر بعض خاصته أنه أرق ليلةً أرقًا شديداً ، وجعل يتململ على فراشه، فقيل له : أصلح الله الأمير ! ما الذي عرض ؟ فقال : ويْحكُم ! إني سمعت في هذه الليلة نادبةً ، وقاضينا مريضٌ ، ومأأراه إلا وقد قضى نحبه . فأين لي بمثله ، ومن يقوم بالرعية مقامه ؟ فمات القاضي في تلك الليلة وهو المُصعب بن عمران قاضي أبيه . فولى بعده محمد بن بشير .

فكان أقصد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفذهم

بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عـاملا للحكم اغتصبه جاريةً ، وصـيرها إلى الحكم ، فـوقعت من قلب الحكـم كل موقع، فأثبت الرجل أمره عند القاضي ، وأتاه ببينه تشهد على معرفة ماتظلم منه وبملكه للجارية وبمعرفـتهم بها، فأوجبت السُّنَّةُ أن تحـضر الجارية، فاستأذن القاضي على الحكم ، فـأذن له ، فلما دخل عليه ، قال له: أيها الأمير ! إنه لايتم عدلٌ في العامة دون إقامته في الخاصة ! وحكى له أمر الجارية ، وخيره بين إبرازها للبينة ليـشهد على عينها أو عزله، فقـال له الحكم : أوَلا أدعوك إلى خيـر من ذلك ! تبتـاع الجارية من صاحبها بأبلـغ مايطلب فيها . فقال القاضي : إنَّ الشـهود قد شهدوا من كـورة جيـان ، وأتى الرجل يطلب الحق في مظـانه ، فلما صـار ببابك ، تصرفه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول : باع مالا يملك بيع مقـهور ، فلمـا رأى عزمـه على ذلك ، أمر بإخـراج الجارية من قصره، فشهد الشهودُ عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها .

قال : وكان هذا القاضي محمد بـن بشير ، إذا خرج للمسجد، وجلس للأحكام، جلس في رداءٍ معُصْفَر ، وشـعر مفرَّق، فإذا طُلب ماعنده وُجِد أفضل الناس وأورعهم .

وكان الحكم يقول : ماتحلَّى الخلفاءُ بمثل العدل ! [1] .

وهكذا يضرب الحكم مثالا من أروع الأمثـلة على الاهتمام بتعيين القضـاة الأكفـاء ويخضع لتطبـيق الحق حينمـا يتوجـه عليه، ويشـيد بالخلفاء الذين يتحلون بالعـدل، وهذه أفعال وأقوال حمـيدة، وخاصة

(١) البيان المغرب ٢/٧٨ - ٧٩ .

حينما تصدر ممن هم في أعلى قمة من المسئولية في بلادهم، وهي إلى جانب كونهــا من المُثل العالية التي تربَّى عليــها هؤلاء الأمراء في ظل تطبيق الإسلام فإنها من التجارب السياسية التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب .

وفي هذا الخبر موقف جليل للقاضي محــمد بن بشير حيث أصر على الحكم بالعدل وإنفاذ الحق حتى على الحاكم ، وهو موقف يضاف إلى مواقــف القضاة الــعالية الــتي أقروا فيــها العــدالة وحفظوا لــلأمة الإسلامية أمنها وقوتها .

* * *

مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن ابن الحكم.

تولى إمـرة الأندلس بعـد موت جـده عبـد الله بن مـحمـد بن عبدالرحمن بن الحكم وذلك في عام ثلاثمائة [١].

كان له غزوات كثيرة ضد النصارى، قاد بعضها بنفسه وأسند قيادة بعضها لقادته ، وسأعرض نماذج من أبرز الغزوات التي تمت في عهده باختصار ، فمن ذلك :

غزوة مُطُونية :

وكانت في العـام السادس والثـلاثمائة حيث جـهز أمـير المؤمنين عبدالرحمن الناصر حملة بقيادة حاجبه بدر بن أحمد إلى دار الحرب، وكـان سبـب ذلك أن النصـارى تطاولوا على من بجـوارهم من أهل الثغـور من المسلمين لما انقطعت الغزوات الصيـفية لبلادهم ، فـخرج إليهم الجيش الإسـلامي بعدما تجمعت أمـداده من أنحاء البلاد في يوم الثلاثاء لخـمس بقين من شهـر محرم ، وقـد تجمع الأعداء وحـشدوا قواتهم، فجرت بينهم وبين المسلمين معركة حامية انتصر فيها المسلمون وشفى الله صدورهم من أعدائهم ، وقتل من الأعداء عدد كبير وأسر منهم كذلك ، وكان الفتح يوم الخـميس لثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت لخمس خلون من ربيع الأول [٢] .

---

(١) الكامل في التاريخ ٦/١٤٣ .

(٢) البيان المغرب ٢/ ١٧٢ بتصرف .

غزوة بلدة :

وفي شهر ذي الحجة من عام ستة وثلاثمائة غزا الناصر لدين الله بنفسه مدينة بلدة ، وقد مر في طريقه بحصن دوش أمانتش فنازله وحاربه حتى افتتحه ، ثم نهض إلى مدينة بلدة فحاصرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي الحجة ، فنزل من كان بها من المسلمين وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمَّنهم الناصر وقاتل الكفار في المدينة حتى أظفره الله بهم فقُتلوا عن آخرهم وملك المسلمون المدينة، واستولوا على بعض الحصون المجاورة [1] .

غزوة مُويش :

وفي سنة ثمان وثلاثمائة غزا أمير المؤمنين الناصر دار الحرب، حيث خرج من قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر المحرم، وبعد أربعة أيام ورد عليه كتاب فتح من عامله على مدينة الفرج يذكر فيه أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير وأن الله تعالى منحهم أكتاف الكفرة فقتلوا وأسروا كثيرا منهم فاستبشر الناصر وتفاءل باسم المحلة التي كان فيها يوم أن ورد عليه كتاب النصر وهي مخاضة الفتح .

وقد استمر الناصر في مسيره نحو بلاد العدو وأظهر التوجه إلى الثغر الأقصى ثم عرج بالجيش إلى طريق آلبة والقلاع ، ثم بعث سعيد بن المنذر الوزير في سرية إلى حصن وُخْشُمة فأغذَّ السير حتى قرب من الحصن ، وسرَّح الخيل يمنة ويسرة ، والمشركون في سكون

(١) المرجع السابق ٢/ ١٧٣ بتصرف .

وغفلة، إذ كان أميرهم قد كاتب أمير المؤمنين مكايدًا له بمحاولة إبعاده عن بلاده بمواعيد وعدها من نفسه فأظهر أمير المؤمنين الناصر قبول ذلك منهم وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة فأصابوا مواشيهم ودوابهم فغنموها ورجعوا إلى العسكر سالمين، ثم كان هجوم الجيش على ذلك الحصن ففرَّ منه الكفار وأخلوه وذلك في صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر .

ثم رحل أمير المؤمنين الناصر إلى حصن قاشترمورش وهو قاعدة الكفار هناك والموضع الذي كانوا يغيرون منه على المسلمين، فلما رآهم أعداء الله أخلوا الحصن وخرجوا هاربين، فدخله المسلمون وغنموا جميع مافيه ، وخربوا حصن القُبِلَّة المجاور له .

ثم ارتحل الناصر بالمسلمين إلى مدينة قُلُونية وكانت من أمهات مدنهم فاستولوا على ماحولها ثم وجدوها خالية قد شرد عنها أهلها إلى الجبال المجاورة لهم ، فغنم المسلمون جميع ماأصابوا فيها .

ثم ارتحل الناصر لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة لنجدة المسلمين بها حيث كان زعيم النصارى « شانُجه » قد ضايقهم وأخافهم، فسار بالمسلمين برفق لئلا يشق عليهم لاتصال سفرهم حتى وصل إلى تطيلة ، ثم قدَّم الخيل مع محمد بن لُبّ عاملها إلى حصن قَلهُرَّة الذي اتخذه شانجه للإغارة على أهل تطيلة ، فلما قصدته الخيل أخلاه من كان فيه واستولى عليه المسلمون ، وبقى الناصر يومين حتى خربه وغنم مافيه واستولى على ماحوله .

ثم رحل بالجيوش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول قاصدًا

زعيم النصارى « شانجه » ، فخرج شانجه من حصن أرنيط بجيشه وتعرض لمقدمة جيش المسلمين فتبادر إليه الشجعان فانهزم الكفار وركبتهم الخيل ، فقتل من الكفار من قتل وفر بقيتهم إلى الجبال، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوس قتلى المشركين وتلقَّوا بها أمير المؤمنين الناصر ولم يكن له علم بالمعركة .

وورد الخبر على الناصر باجتماع أرذون وشانجه واستمداد بعضهما ببعض طامعين في اعتراض مقدمة جيش المسلمين أو قطع ساقتهم، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها ، ثم نهض بهم موغلا في بلاد الأعداء ، فأشرفوا من الصخور والجبال المنيعة وتعرضوا لأطراف جيش المسلمين ، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين ، فأمر الناصر بالنزول وإقامة الأبنية ، فلما نزل الأعداء من الجبال قاتلهم المسلمون فهزموهم وساروا خلفهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم ، ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من الأعداء إلى حصن مويش فأحاط به المسلمون من جميع جهاته وحاربوا من لجأ إليه حتى فتحوه واخرجوا جميع من فيه وقتلوهم، واستولوا على مافيه وماحوله [1].

غزوة طُرُّش :

وفي يوم السبت الثامن من محرم سنة تسع وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر إلى « كورة رية » حتى نزل على حصن « طرش » وكان النصارى قد اجتمعوا فيه وتحصنوا به فحاصرهم المسلمون من

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٧٥ ، بتصرف .

جميع الجـهات ونصبوا المنجنيـقات على المرتفعات القـريبة منه، وكان الأعداء يبرزون في أول الأمر للقتال حـتى مزقتهم الحرب وقل عددهم فأغلقوا الحصن على أنـفسهم ، فاستمر المسلمـون في حصارهم حتى أخذهم الجهد وأشفقوا من الهلاك فـخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، فدخله المسلمـون وخرج منه النصارى ، ثم هُدم وأُلقيت أحـجاره في النهر، وبُني في موضع الكنيسة مسجد جامع [1].

غزوة مُنْت رُوبي :

وفي يوم السبت لعشر خلون من المحرم عام عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصـر لغزو كورة ألبيرة ، وسـار حتى نزل على حصن منت روبي ، وكان جبلا منيعا بـعيد المرام، وكان العجم قد لاذوا به، وهو متوسط بين كـورة ألبيرة وكورة جيـان وعلى طريق بجانة، فكان من سلك تلك السبيل مـن وارد أو صادر لايسلم من عادية أهل ذلك الحصن، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأمـوال، فأقام عليهم الأمير الناصر خمسـة وثلاثين يوما محاصرا حتى أباد كـثيرًا منهم، ثم أبقى على الحـصن من جنوده من استـمـر على محـاصرتهم، وتقـدم إلى حـصون قـريبة في ألبـيرة ورية فـحـارب أهلها وأبقى من قـادته من يحـاصـرونهـا ، حـتى ضـعف الأعـداء ولم يبق لهم وجـود يضـر بالمسلمين[2].

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٠ ، بتصرف .

(١) المرجع السابق ٢/ ١٨٢ بتصرف .

غزوة بَنْبَلونة :

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لدين الله لغزو بنبلونه ، وقد سار في عسكر كبير حتى دخل ثغر تطيلة فانضم إليه جنود من أهل ذلك الثغر ، ثم دخل بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر فنزل من أول بلادهم على حصن قَلَهُرَّه ، وكان زعيم النصارى « شانجه » قد أخلاه ، فأمر الناصر بهدمه، ثم انتقل إلى بيطرة آلْتَه ، وكانت هناك حصون مانعة فأخلاها الأعداء ، ولجأ بعضهم إلى غيرانٍ في شفير جرف على النهر، فلم يزل المسلمون يتعلقون إليهم فيها ويتسورون عليهم من أعاليها حتى فتح الله عليهم فقتلوا الرجال وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة .

ثم انتقل الناصر بعد ذلك إلى عدد من حصون الأعداء فاستولى عليها، وعزم على الدخول إليهم في عقر دارهم فدخل في مواضع لم يدخلها المسلمون قبل ذلك حتى نزل بقرية بَشْكُونشة التي ينسب إليها «شانجه » ، فجمع هذا القائد جنوده واستمد بالنصارى من كل مكان، فأمر الناصر بالتعبئة والاستعداد للحرب واثقا بالله - عز وجل- ومتوكلا عليه ، فسلك بجيشه بين جبال شامخة ، ورجا أعداء الله اقتطاع بعض جيش المسلمين وهبطوا من الجبال فدارت بينهم وبين المسلمين مناوشة يسيرة، ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم نهوض الأسود فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحملة عليهم حتى اقتلعوهم عن موضعهم وهزموهم حتى اضطروهم إلى مرتقًى وعر فاقتحم المسلمون

عليـهم وسهل الله لهم وعـره فقتلـوا جملة منهم وغنمـوا كثـيرا من أمـوالهم ، وانصرفـوا سـالمين لم يصب منهم غـيـر عدد قليل فـازوا بالشهادة (١) .

وبعـد فـهـذه أمـثلة من الغـزوات التي قـام بهـا أمـيـر المؤمنين عبـدالرحمن الناصر لدين الله، وهذه الأمـثلة تبين لنا الجهود الكبـيرة التي بذلهـا حكام الأندلس وقـادتهم وجنودهم في سـبيل الدفـاع عن الإسلام والمسلمين وتثبيت الدولة الإسلامية ، ومن هذه الأمثلة وغيرها ندرك أن ما اشتهر عن حكام الأندلس من أنهم كانوا يتقلبون في أنواع من النعيم ليس على إطلاقه، بل إن ذلك الرخاء والنعيم لم يتوفر لهم إلا في ظل رايات الجهـاد الخفاقة التي اندحـر بها الأعداء واستـسلموا لقوة المسلمين .

* * *

(١) المرجع السابق ٢/ ١٨٥ بتصرف .

مواقف المنصور محمد بن أبي عامر الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية :

بعد أن توفي الحكم بن عبد الرحمن في عام ستة وستين وثلاثمائة تولى بعده ابنه هشام وكان ابن اثنتي عشرة سنة وكان أمر دولته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي ، وكان لابن أبي عامر دور قوي في السياسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن فرقَّاه هشام إلى رتبة الوزارة، ثم استأثر ابن أبي عامر بالحكم وتخلص من جعفر بن أبي عثمان، ومن بعض القادة الذين ينافسونه في الحكم حتى انفرد أخيرًا بشئون الحكم، وكان يحكم باسم الأمير هشام [1] ، ومع ماوقع فيه من تدبير المؤامرات وقتل المنافسين فإن له مواقف جهادية كثيرة .

ومن أبرز غزواته غزوة « شَنت ياقوب» وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري هذه الغزوة بقوله :

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصر على الملوك الطاغية (دمرها الله) ، سما إلى مدينة شَنْت يَاقُوب بها من الأرض الكبيرة . وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رُومة وماوراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحواري أحد الإثني عشر رحمهم الله ، وكان أخصهم بعيسى عليه السلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياهُ . وقد زعم جماعةٌ منهم أنه ابن يوسف النجار. وشنت ياقوب هي مدفن ياقوب، فهم يسمونه أخا الرب (تعالى الله عن

---

(1) انظر الأموين بين الشرق والغرب / ٣٨٠ - ٣٨٨ .

قولهم عُلواً كبيراً) وياقوب بلسانهم يعقوب، وكان أُسْقُفًا ببيت المقدس، فجعل يستقري الأَرَضين داعيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فقتل بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية. فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره . ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قصدها، ولا الوصول إليها ، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها، وبُعد شُقَّتها .

فخرج المنصور إليها من قُرطبة غازيًا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وهي غزوته الثامنة والأربعون.

ثم ذكر خطوات مسيره إلى أن قال : ثم نهض يريد شنت ياقوب، فقطع أَرَضين متباعدة الأقطار ، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر . ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فلطارش ومباسيطة والدير ومايتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر، لامسلك فيه ولاطريق ، لم تهتد الأدلاء إلى سواه. فقدَّم المنصور الفَعَلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي منيُه، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأَرَضين أَريضة، وانتهت مَغيرتُهم إلى دَير قَسطان وبسيط بلبنوط على البحر المحيط ، وفتحوا حصن شنت بلايه، وغنموه ،وعبروا سِبَاحَةً إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فسبوا من فيها ممن لجأ إليها .

وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتَّصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره ، واستخرجوا من كان فيه ، وحازوا غنائمه .

ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليج لورقى في معبرين أرشد الأدلاء إليهما، ثم نهر إيله، ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة ، كثيرة الفائدة ، منها بسيط أونبة وقرجيطة ودير شنت برية. ثم انتهوا إلى خليج إيلياء ، وهو من مشاهد ياقوب أيضا صاحب القبر ، تلو مشهد قبره عن النصارى في الفضل ، يقصد نُساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها . فغادره المسلمون فارغًا .

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان ، فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها . ووكَّل المنصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه .

إلى أن قال : وإنكفأ المنصور عن باب شنت ياقوب ، وقد بلغ غايةً لم يبلغها مسلمٌ قبله .

قال : ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخا من الرُّهبان جالسًا على القبر ، فسأله عن مُقامه، فقال: أؤانس يعقوب. فأمر المنصور بالكفّ عنه (١).

فهذه غزوة من غزوات المنصور ابن أبي عامر الكثيرة ، وقد خصصتها بالذكر لما فيها من المغامرات التي لم يسبق إليها في تلك البلاد، ولعل الذي دفعه إلى هذه المغامرات وتدمير ماوصل إليه من

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧ باختصار .

عامر تلك البلاد الجبلية هو كون تلك المناطق الوعرة ملاذًا للمخربين من النصارى الذين يقومون بالهجوم على بلاد المسلمين ثم يلجئون إلى تلك البلاد التي لم يكونوا يتوقعون أن أحدًا من الغزاة سيصل إليها .

قال ابن عذاري : وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة توفي المنصور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى ، قال: وكانت عدة غزواته سبعا وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه ، وهو في أكثرها يشكو علة النقرس، عفا الله تعالى عنا وعنه [1].

من مواقفه الإصلاحية :

وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك : بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم . ابتدأ المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة ، وصارت صدراً في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة ، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها ، فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها ، وأن المنصور لايريد إلا إنصافه فيها . فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه : أن لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبًا ، كانت عنده أقصى الأمنية، وشرطها صحاحًا . فاغتنم الأمناء غفلته ، ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه ، ثم أخبروا المنصور بخبره ، فضحك من

(١) البيان المغرب ٢/٣٠١ .

جهالته، وأنف في غبنه ، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ماسأل ، وتدفع له صحاحًا كما قال . فـقبض الشيخ مائة دينار ذهبًا ، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قـبضها من الفـرح، وجاء محتـفلاً في شكر المنصور. وصارت قصته خبرًا سائرًا .

ومن ذلك أيضا : بنيان قنطرة على نهر إستجة ، وهو نهر شنيل، فتجشم لها أعظم مؤنة . وسهَّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة (١).

فهـذان مثلان مـن الإصلاحات العـامة التي قام بهـا، ومما يلفت النظر في الخبر الأول رحـمته بذلك الشيخ وتورعه عن غـبنه، فهو لـم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كـما فعل أصحابه، بل أعطاه حقه وزيادة على ذلك ، فهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه .

قـال : ومن ذلك أنه خط بيده مـصحـفًـا كان يحـمله معـه في أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به .

ومن قوة رجـائه أنه اعتنى بجـمع ماعلق بوجـهه من الغـبار في غزواته ومـواطن جهـاده ، فكان الخدم يأخـذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله ، حتى اجتـمع له منه صُرةٌ ضخمة عهد بتـصييره في حنوطه عند مـوته ، وكان يحـمله حيث مـاسار مع أكـفانه ، توقـعًا لحلول منيتـه ، وقد كان اتخذ الأكفـان من أطيب مكسبه من الضـيعة الموروثة عن أبيـه وغزل بناته . وكـان يسأل الله تعـالى أن يتوفـاه في طريق الجهاد ، فكان كذلك (٢) .

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٨٨ .

وهذان الخبـران يدلان على قوة دينه وعـمق استحـضاره للحـياة الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله .

قـال : وكان عـدل المنصـور في الخـاصـة والعامـة . واطِّراحـه المهاودة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمراً مضروبًا به المثل .

ومن عدله أنـه وقف عليه رجلٌ من العـامة يومًا بمجلـسه فناداه: ياناصـر الحق إن لي مظلمـة عنـد ذلك الوصـيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفـتى صاحب الدرقة . وكان له فـضلُ محل عند ابن أبي عامر ، ثم قال : وقد دعوته إلى الحاكم ، فلم يأت ! فقال المنصور: أَوَعبـد الرحمن بن فـطيس بهذه المنزلة من العـجز والمهـانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ اذكر مـظلمتك ياهذا ! فذكر الرجل مـعاملةً كانت جارية بينهـما قطعها من غيـر نصف، فقال المنصور : مـاأعظم بليتنا بهذه الحاشية ! ثم نظر إلى الصّقْلَبيّ ،وهو قد ذهل عقله، فقال: ادفع الدرقة إلى فـلان ، وانزل صاغرًا ، وساو خـصمك في مقامـه حتى يرفعك الحقُّ أو يضعك ! ففـعل ، ومثُل بين يديه ، ثم قال لصاحب شرطته الخـاص به : خُذ بيد هذا الظالم الفاسق ، وقدمه مع خـصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمـه بأغلظ مايوجبه الحق من سجن أو غيره ! فـفعل ذلك ، وعاد الرجل إليه شاكرًا ، فـقال له المنصور: قد انـتصفـت أنت فاذهب لسـبيلك ، وبقى انتـصافي أنا ممن تـهاون بمنزلتي. فتناول الصقلبيَّ بأنواع من المذلة ، وأبعده عن الخدمة .

ومن ذلك ، قـصة فـتاه الكبـير المـعروف بالميـورقي مع التاجـر

المغربي، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور ، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم ، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه ، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى ، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم ، فأنصفه منه ، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه .

ومن ذلك ، قصة محمد ، فصَّاد المنصور وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يومًا إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد ، فألفاه الرسول محبوسًا في سجن القاضي محمد بن زرب ، لِحَيْف ظهر منه على امرأته. قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة . فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله، ثم يعيده إلى محبسه . ففعل ذلك على مارسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى مانالهُ،فقطع عليه المنصور ،وقال له: يامحمد، إنه القاضي وهو في عدله،ولو أخذني الحقُّ ماأطقتُ الامتناع منه ! عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك . فانكسر الحاجم، وزال عنه ريحُ العناية . وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجه ، وزاد القاضي شدةً في أحكامه [1].

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالميهم وإن كانوا من المقربين إليه ، وفي الخبر الأول نراه يُنحِي

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

باللائمة على ذلك القاضي الذي عجز عن استقدام المدعى عليه لكونه من المقربين للمنصور ، فهو يرى بذلك أن القاضي يجب عليه أن يكون قويا وأن لاتأخذه في الحق لومة لائم وأن لايفرق في الخصومة بين كبير أو صغير ، ثم إنه بعد أن أخذ المظلوم حقه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خاصة لكونه استغل قربه منه فامتنع من الحضور إلى مجلس القضاء .

قال : ومن ذلك قصة الجوهري التاجر ، وذلك أن رجلا جوهريًا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة ، فأخذ المنصور من ذلك مااستحسنه ، ودفع إلى الجوهري التاجر صُرَّته ، وكانت قطعة يمانية . فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرَّملة على شط النهر ، فلما توسطها واليومُ قائظٌ وعرقُه مُنْصبٌ دعته نفسه إلى التبرد في النهر ، فوضع ثيابه وتلك الصُّرة على الشط ، فمرت حدأةٌ ، فاختطفت الصرة ، تحسبها لحما، وصاعدت في الأفق بها ذاهبة ، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر ، فقامت قيامته وعلم أنه لايقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولابحيلة ، فأسرَّ الحزن في نفسه، ولحقته لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيها . وحضر الدفع إلى التجار ، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان له مابه من المهانة والكآبة ، وفقد ماكان عنده من النشاط وشدة العارضة . فسأله المنصور عن شأنه ، فأعلمه بقصته ، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هَديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ؟ قال: مرَّ مُشرقًا على سَمْت

هذه الجنان الذي يلي قصرك ! يعني الرملة ، فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة ، فمضى ، وجاء بهم سريعًا ، فأمرهم بالبحث عمن غيرَّ حال الإقلال منهم سريعًا ، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج ، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: ياMولانا ! مانعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم ، ويتناولون السَّقي بأقدامهم عجزًا عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة . فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب ، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حاضرٌ ، وقال له : سببٌ ضاع منا وسقط إليك مافعلت به ؟ فقال: هو ذا يامولاي ؟ وضرب بيده إلى حجزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها ، فصاح التاجر طربًا وكاد يطير فرحًا، فقال له المنصور : صف لي حديثها. قال : نعم ! بينا أنا أعمل في جناني تحت نخلة ، إذا سقطت أمامي ، فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار ، فاحترزت بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عُيُونًا كانت معها مصرورة ، وقلت: أقلُّ مايكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها . فأعجب المنصور ماكان منه ، وقال للتاجر : خُذ صرتك ، وانظرها ، واصدقني عن عددها . ففعل وقال : وحق رأسك ، يامولاي ، ماضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها ،وقد وهبتها له. فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ، ولانتقص عليك فرحتك. ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفورًا عليه . ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا من دنانيره وللجنَّان بعشرة دنانير ثوابا لتأنيه عن

إفساد ماوقع بيده، وقال : لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث ، لأوسعناه جزاءً ! قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور ، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثنّ في الأقطار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها ، فلا تعتصم منك ولاتؤذي جارك! فضحك المنصور ، وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك ! فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره ، وحيلته في تفريج كربته [١].

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبي عامر ودقة ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القضايا والبحث الدقيق في خفاياها وملابساتها إنما هو بالدرجة الأولى توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم الأمة وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير، فالذهن في هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة .

* * *

(١) البيان المغرب ٢/٢٨٨ - ٢٩٢ .

جهاد المرابطين في الأندلس

قبل أن أتحدث عن دور المرابطين في الجهاد في الأندلس أحب أن أعطي نبذة موجزة عن دولة المرابطين .

وأصل نشوء هذه الدولة التي حكمت بلاد المغرب والأندلس يعود إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الصنهاجي ، أمير جدالة ، فإنه قد شعر بما كان عليه قومه من الجهل بالدين وعدم وجود علماء يعلمونهم ويذكرونهم ، فلما رجع من الحج عام أربعين وأربعمائة مرَّ على القيروان واتصل هو وجماعته بالعالم المربي أبي عمران بن موسى بن عيسى الفاسي فطلبوا منه أن يرسل معهم عالما يفقههم في أمور دينهم، فأحالهم إلى تلميذه العابد المربي وجاج بن زللو اللمطي ، الذي بني له- بعد تخرجه من شيخه - رباطا في الصحراء الكبرى في«نفيس» واجتمع حوله فيه تلامذته ، وكتب الشيخ إلى تلميذه هذا مع يحيى ابن إبراهيم « ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم . واللهُ لا يضيع أجر من أحسن عملا » .

وقد وقع اختيار الشيخ « وجاج اللمطي » على تلميذه « عبد الله ابن ياسين الجزولي » وكان اختياراً موفقًا كما تبين فيما بعد، حيث كان عبد الله هذا هو منشيءَ دعوة المرابطين وأستاذَ زعمائهم، وسار عبد الله بن ياسين نحو ديار الملثمين من جدالة ولمتونة مع يحيى بن إبراهيم ، وكان يحيى يقدِّمه لكل قبيله يتوجه لدعوتها بقوله « هذا

عبد الله بن ياسين محيي السنة » وقد أثار إعـجاب قبائل البربر بعلمه وأخلاقه حتى قال أحد شيوخهم : أرأيتم هذا الجمل ! لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم .

وبدأ ابن ياسين دعوته بالوعظ والتعليم فأحبه الناس وأقبلوا عليه، ثم بدأ بإصلاح المجتمـع وإنكار المنكرات وتطبيق أحكام الإسلام على العامـة والكبراء ، فقاومـه بعض الأكابر الذين يرفضـون من الإسلام ماخالف أهواءهم فهدموا داره ونهبوا مافيها .

عند ذلك فكَّر هو وصـاحبه يحى بن إبراهيم فـي إنشاء رباط في جزيرة منعـزلة عند مصب نهـر السنغال في المحيـط الأطلسي، وتوافد التـلاميـذ على ذلك الرباط يتـعلمـون العلم الديني ويتلقـون التربيـة الأخلاقية والجهادية ، وقد توسع ذلك الـرباط حتى بلغ عدد جماعته أكثـر من ثلاثة آلاف [1] ومن هؤلاء التلامـيذ تكونت فـرق المجاهدين التي أنشأت دولة المرابطين بعد جهاد طويل قاده منشئ هذه الدعوة عبد الله ابن ياسين، بمؤازرة صـاحبه يحـيى بن إبراهيم الجدالي، ثم بقـيادة يحيى بن عمـر اللمتوني، ثم أخيه أبي بكر بن عـمر، إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين الذي وسع الجهاد وأقام دولة المرابطين الواسعة.

سبب جهاد المرابطين في الأندلس :

بعـد أن سقطت إمـارة طليطلة وأصـبحت كل إمـارات الأندلس مهـددة بالسقوط في أيدي النصـارى اهتم علماء الأندلس ووجـهاؤها

---

(١) البيـان المغـرب لابن عـذاري ٤/ ٧ - ٢٤، أمـيـر المسلمين ابـن تاشـفين لإبراهيم الجمل/ ٣٧ - ٤٩ ، التاريخ الأندلسي / ٤١٩ - ٤٢٠ .

بسبيل إنقـاذ وضعهم المتدهور ، فاتَّجـهتْ أنظارهم إلى طلب النجدة من أميـر المرابطين في المغرب ، ووافقهـم بعض حكامهم على ذلك، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ، فأرسلوا رسلهم إلى الأمير يوسف بن تاشفين ليسرع إلى نجدتهم [(١)] .

معركة الزَّلاقة :

وبعـد أن وصلت رسل الأندلس إلى ابن تاشـفين يطلبون نجـدته سارع إلى ذلك بعد استشارة أهل الرأي ، وقد عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس على دفعات حتى تكاملت ، وكـان عدد فرسان المرابطين سبعة آلاف ومعهم عدد كثير من الرَّجَّالة ، وذلك في شهر ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وأربعمائة .

ويُذكر أنه في حـال عبور الأمـير يوسف بن تاشفين البـحر هبت ريح عاصف أثارت أمواجًا عالية ،فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعـو الله عز وجل « اللهم إن كنت تعلم أن فـي جَوَازِنا هذا خِـيَرَةً للمسلمين فسهِّل علينا جواز هذا البحر،وإن كان غير ذلك فصعِّبه حتى لاأجوزه،فاستجاب الله دعاءه فسهَّل له عبور ذلك البحر [(٢)].

وصل ابن تاشفين إلى الأندلس بـجيشه ، وسـارع أمراء الطوائف إلى الاشتراك بقواتهم ، وفرح أهل الأندلس بقدوم الأمير ابن تاشفين فرحًا عظيمًا ، وسـار المرابطون إلى إمارة بطليوس وعسكروا في سهل « الزَّلاقة» ، وتوافدت عليهم جيوش الأندلس .

---

(١) نفح الطيب ٦/ ٨٧ .

(٢) التاريخ الأندلسي / ٤٠٣ عن دول الطوائف ٣١٩ ، ٤٤٧ .

وكان أمير النصارى « الفونسو أذفنوش» يحاصر سَرَقسْطة في طريقه إلى الاستيلاء على بقية الأندلس ، فلما علم بقدوم جيش المرابطين فكّ الحصار وبدأ يستعد وكاتب أمراء النصارى فأجابه عدد منهم واجتمعت عنده جيوش كثيرة ، فسار بجيشه مزهوًا بتفوقه في العَدد والعُدد ، ونظر إلى جيشه فقال : بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء .

وبعد أن اجتمع أمراء الطوائف ضموا جيوشهم وأسندوا قيادة جيشهم إلى المعتمد بن عباد ، وصاروا في مقدمة الجيش ومنْ خلفهم جيش المرابطين .

وقبل المعركة جرت مراسلات بين الطرفين ، فقد أرسل ابن تاشفين - عملاً بالسنة - إلى الفونسو يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ومما جاء في هذه الرسالة « وبلَغَنَا ياأذفنوش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا ، فقد جزناه إليك ، وجمع الله تعالى في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ﴿ **وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ** ﴾ [(١)]. فغضب الفونسو لهذه الرسالة وردّ بكتاب عنيف مملوء بالوعيد ، وقد اكتفى ابن تاشفين في الرد عليه بأن كتب على ظهر الرسالة « الذي يكون ستراه » .

وقد نظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جيشه فجعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد بن عباد وجعلهم في المقدمة ،وجعل منهم

---

(١) سورة الرعد / ١٤ .

في الميـمنة قوة بقـيادة ابن الأفطس ، وجعـل في الميسرة أهـل شرقي الأندلس ، وجعل قوات المرابطين في الخـلف ، وأفرد منهم قوتين من الفرسـان جعلهـما جـيش احتـياط إحـداهما بقـيادة داود بن عـائشة والأخرى بقيادة أبي بكر سِيْر بن أبي بكر وهما من قادته الكبار.

ولما تقابـل الجيشـان كتب قائـد العدو إلى المسلمين يوم الخـميس الحادي عشر من شهر رجب يخـبرهم أن المعركة ستكون يوم الإثنين، وكان ذلك منه خداعا ليباغتهم يوم الجمعة .

وقد أدرك المسلمـون تلك الخديعة ، وأكد ذلك ماظـهر في جيش العدو من الاسـتعداد للقتـال ، فأخذ المسلمون حـذرهم ، وزاد الأمرَ تأكيـدًا أن أحد العلـماء الصالحين وهـو أبو العبـاس أحمدُ بن رُمَـيْلَة القرطـبي أخبر برؤيـا صالحة ، وهي أنه رأى النـبي ﷺ ليلة الجمـعة فبشـره بالفتح والشهادة له في صبـيحة الغد ، فانتبـه مسرورًا وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب ، وكـان في جيش ابن عباد ، فـوصله خبر الرؤيا فبـعث إلى ابن تاشفـين وأخبره ، فكان ذلك تحـقيـقًا لخـديعة الفونسو المذكورة .

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من عام تسعة وسبعين وأربعـمائة زحف الفونسو بجيشــه على المسلمين . وقد وجه بقواته إلى مقدمة جيش المسلمين ، ومـاكاد الأعداء يوجهون ضرباتهم إلى جيش الأندلس حتى ظهـر الفشل والخلل فيهم فانهزم كـثير منهم وثبت قائدهم ابن عباد في قلة معه .

وكان قائد المسلمين يوسف بن تاشفين يلاحظ مايجري بدقة فوجه

الفرقة الاحتياطية التي كانت بقيادة ابن عائشة لنجدة المعتمد ابن عباد، ثم لما احتدمت المعـركة وكثّف الأعداء من هجومـهم وجه ابن تاشفين الفرقة الاحتياطية الأخرى بقيادة البطل المشهور سير بن أبي بكر ، وقد استطاع ابن أبي بكر أن يوقف قوات القشـتاليين التي يقودها هانيس ، ودارت بين القوتين معركة عنيفة انضم إليها قائد النصارى الفونسو .

وتراجع جيش الأندلسيين فاشتـغل النصارى بقتالهم ومطاردتهم، وكانت الفرصـة الذهبية التي خطط لها ابن تاشفين حـيث كان يلتمس نقاط الضعف في العدو لينزل إلى الميدان بهجوم صاعق، فاغتنم فرصة انشـغال الأعـداء بمطاردة الجـيش الأندلسي وبُعْدَهـم عن معـسكرهم فداهمـهم من الخلف وأباد الحامية التي حـول معسكرهم وأضـرم فيه النيران ، ثم نزل إلى الميدان وهجم بجيشه على مؤخرة الأعداء وصار المسلمون يحصدونهم بسيوفهم .

ولما علم قـائد العدو « الفـونسـو » بما حل بمعسكره رجع بقـواته فاصطدم بالمرابطين ودارت بينهم معركة حامية انهزم فيها النصارى .

ثم أراد ابن تاشفين أن يقضي على بـقية النصارى فجمع جـيشه في صفـوف متـراصة وهجم بهم على الـعدو ، واستطاع أحـد جنود الفرقة السودانية أن يصل إلى الفونس وأن يقتل فرسه وطعنه في فخذه إلا أنه نجا من تلك الطعنة واستمر القتال إلى غروب الشمس،وفرّ بقية جيش النصارى،وتسلل الفونسو في الظلام مع خـمسمائة فارس مات منهم أربعـمائة في الـطريق ووصل الفونسـو إلى طليطلة ومـعه مـائة فارس(١) .

---

(١) نفح الطيب ٦/٨٦ - ١٠٣،الكامل في التاريخ ٨/١٤١،أمـير المسلمين يوسف بـن=

وهكذا كانت معركة الزَّلاقة معركة حاسمة ارتفع بعدها شأن المسلمين وثبت وجودهم في الأندلس وانخفض شأن النصارى وانحازوا إلى معاقلهم .

لقد كان الفونسو عازما على إنهاء وجود المسلمين في الأندلس ، وساعده على ذلك تحالف أمراء النصارى في أوربا معه وتفرُّق المسلمين إلى دويلات صغيرة يعيش أمراؤها في تناحر وعداء مستمر ، وكانوا من ذلتهم يدفعون الجزية للنصارى ، وبلغت الخيانة ببعضهم إلى أن طلبوا المساعدة من أمير قشتاله الفونسو على قتال إخوانهم من أمراء المسلمين ، فاغتنم هذا الأمير الفرصة وبدأ يستولي على بلاد الأندلس إلى أن قيَّض الله له الأمير البطل القائد المحنَّك يوسف بن تاشفين فقضى على جيشه وحطم آماله .

ولقد كان عجيبًا أن يخوض ابن تاشفين هذه المعركة الهائلة وهو في الثمانين من عمره، ومع هذا العمر الكبير فإنه قاد جيشه وشارك في القتال وهو على ظهر فرسه، وهذا من الدلائل على صلاحه وعلو همته .

لقد كان من نتائج هذه المعركة الفاصلة أن الإسلام بقي في الأندلس مئات السنين بعد أن اتفق الأعداء من النصارى على القضاء على وجود المسلمين هناك .

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب في شهر شعبان من عام

= تاشفين لإبراهيم الجمل / ١١٦ - ١٣٤ ، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي / ٤٠٣ - ٤٠٩ .

تسعة وسبعين وأربعمائة، وترك جزءًا من جيشه في الأندلس بقيادة سير ابن أبي بكر ليجاهد النصارى، وقد شارك معه في الجهاد أمير بطليوس، أما بقية أمراء الأندلس فإنهم قد تركوا جهاد النصارى ورجعوا إلى مُنازعاتهم، ولم يستفيدوا من الدروس الأليمة التي مروا بها يوم أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يتحولوا إلى عبيد للنصارى.

حصار حصن لَبيط :

اشتد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس وتكررت هجماتهم خاصة على الجهة الشرقية التي كان المعتمد بن عباد يسيطر عليها، وكانوا يخرجون إلى المسلمين من حصن « لَبيط» المنيع وكان النصارى قد أحكموا بناءه ووضعوا فيه آلافًا من المقاتلين ، ولما أيس ابن عباد من الانتصار عليهم وخشي من وقوع بلاده تحت أيديهم سار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وشرح له الضرر الواقع على المسلمين من حصن لبيط وطلب منه نجدتهم ، فوعده ابن تاشفين بالقدوم إلى الأندلس بجيشه .

وبعد أن أكمل الأمير يوسف بن تاشفين استعداده سار وعبر مضيق جبل طارق فتلقاه المعتمد في الجزيرة الخضراء بالمُؤَن، وكتب ابن تاشفين إلى ملوك الطوائف يستنفرهم إلى الجهاد وحدد مكان اللقاء حصن لبيط ، وقد حاصره المسلمون حصارًا شديدًا إلى أن وافق أمير قشتالة الفونسو على إخلائه فأخلاه ثم هدمه ، وتخلص المسلمون

بذلك من بلاء كبير ، وعـاد ابن تاشفين إلى المغرب ، ولكن الأندلس عادت إلى أسوإ من حالها الأولى [1] .

عودة المرابطين إلى الجهاد :

هذا وقـد سـاءت أحـوال ملوك الطـوائف في الأندلس، وجـدَّد بعضـهم تحالفه مع النصـارى ضد إخوانه المسلمين ، فكثُـرتْ مناشدة المسلمين للأمـيـر يوسف بن تاشـفين بـتخلـيص الأندلس من هؤلاء الملوك، وأفـتـاه العلماء كـأبي حـامـد الغزالـي وأبي بكر الطرطوشي بضرورة توحـيد الأندلس تحت قـيادته ليتـمكن من إجلاء الصليـبيين منها، وقد استجاب لتلك النداءات وعمل بفتـوى العلماء فجهز جيشًا وعبر إلى الأندلس في أوائل سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقام ببعض الأعمال الجـهادية ، ثم عاد إلى المغرب وترك عـددًا من قادته ليكملوا الجهاد في توحيد الأندلس ومقاومة النصارى ، وقد جرت معركة كبيرة بين المرابطين بقيـادة سير بن أبي بكر والنصـارى بقيادة البـرهانش كان النصر فيها حليف المسلمين وذلك في عام أربعة وثمانين وأربعمائة .

وفي عام واحد وتسعين وأربعمائة التقى المرابطون بقيادة محمد بن الحاج بالنصـارى القشـتاليين بقيـادة الفونسو قـرب كنشرة من أعـمال طليطلة وقد انهزم النصارى وتكبدوا خسائر كبيرة .

واستمر المرابطون في جـهادهم إلى أن توفي أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في أول محرم من عام خمسمائة بعد عمر يقارب المائة سنة قضى أكثر من نصفها في الجهاد والإصلاح رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) التاريخ الأندلسي /٤٢١ - ٤٢٢ ، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ١٣٥ - ١٤٢ .

وقد خلَفه في حكم دولة المرابطين ابنه علي الـذي سار على سيرة أبيه في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى .

معركة أقليش :

جرت هذه المعركة بعدمـا تولى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم في أوائل عام واحد وخمسمائة، وقد كتب الأمير علي إلى أخيه تميم باستئناف الجـهاد، فتوجه المرابطون إلى مدينة أقليـش الواقعة شرق مدينة طليطلة فـفتحوها، وتركهـا جيش النصارى القشـتاليين وتحصنوا بقلعة أقليش المنيعة، وقد أمدَّ أمير قشتالة الفونسو السادس تلك الحامية بعشرة آلاف فارس، بقيادة ولي عهـده ابنه الوحيد شانُجه البالغ إحدى عشرة سنة، مع قائده الكبير البـرهانش وقادة آخرين، وكان عدد الجيش القشتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي، وقد جرت هذه الوقعة في السادس عـشر من شـوال عام واحد وخـمسمـائة، وقد انتـصر فيـها المسلمون انتصـاراً رائعًا أعاد ذكرى معـركة الزلاقة، وانهزم القشـتاليون هزيمة ساحقة قُتل فيها ابن ملكهم شانُجه المذكور(١) .

معركة إفراغة :

بعد انتصار المرابطين في معركـة أقليش جرت لهم أعمال جهادية انتصروا في أكثرها وأصيبوا في بعضها .

ومن أشهر المعارك التي خاضوها معركة إفراغة ، في رمضان سنة ثمان وعشـرين وخمسمائة ، وهذه المعـركة تعتبر من المعـارك المهمة،

---

(١) التاريخ الأندلسي / ٤٢٢ - ٤٢٥ عن البيان المغرب ، وتاريخ الأندلس ، ونظم الجمان ومصادر أخرى .

وكان الجيش الإسلامي مكوّنا من المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية ، ويعتبر من أعظم قادة المرابطين في ذلك العهد ، وكان جيش المسلمين أقلَّ من جيش النصارى الذي يقوده أدفنوش بن رُدْمِير ، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة بعد قتال عنيف (١) .

وهكذا قدم المرابطون للمسلمين صفحات جهادية بيضاء في المغرب والأندلس .

* * *

---

(١) عصر المرابطين الموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان / ١٢٠-١٢٦ ، التاريخ الأندلسي / ٤٢٦ - ٤٣٧ ، عن نظم الجمان ، والروض المعطار ، والبيان المغرب وغيرها .

مواقف وعبر

فـى

جهـاد المسلمين فى المشرق

فتوح بلاد ما وراء النهر

فى

عهـــد الأمويين

١ - المحاولات الأولى للفتح -

كانت الفتوحات الإسلامية قـد توقفت في آخر عهد عثمان رضي الله عنه لما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية ، واقتصر الأمر تقريبًا على محـاولة إخضاع البـلاد التي تنتقض على المسلمين ، ولم يعُـدْ نشاط الفتوح بشكل ظاهر إلا في خلافة الوليد بن عبد الملك حينما استقرت الأمور الداخلية تمامًا .

ولقد أتاح هذا الانقطاع الطويل نسـبيا فرصـة ترسيخ الإسلام في البلاد التي فتحها المسلمون وتنشـئة الأجيال فيها على هذا الدين حتى أصبح الغـزو ينطلق من خراسـان وسجسـتان لغزو بلاد مـاوراء النهر وكأنه ينطلق من الكوفة والبصرة في عهد عمر رضي الله عنه .

جهاد الحكَم بن عمرو الغفاري :

حينـما تولى زياد بن عـبيد علـى البصرة مـن قبل أميـر المؤمنين معاوية رضي الله عنه عام خمـسة وأربعين ولَّى عددًا من الأمراء على خراسـان ، ثم ولى الحكَم بن عمـرو الغفـاري رضي الله عنه ، وفي ذلك يقول البلاذري : ثم ولَّى زياد الحكم بن عمـرو الغفاري ، وكان عفـيفًـا وله صحبـة ، وإنما قال - يعني زياد - لحـاجبه فِـيل : ايتني بالحكم ، وهو يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي ، وكانت أم عبد الله بنت عثمان بن أبي العاص عنده ، فـأتاه بالحكم بن عمرو ، فلما رآه تبرك به ، وقال : رجل صالح من أصـحاب رسول الله ﷺ ، فولاه خراسان، فمات بهـا في سنة خمس وخمسين ، وكان الحكم أول من صلى من وراء النهر .

قال : وحدثني أبو عبد الرحمن الجعفي قال: سمعت عبد الله ابن المبارك يقول لرجل من أهل الصغانيان كان يطلب معنا الحديث: أتدري من فتح بلادك ؟ قال : لا ، قال : فتحها الحكم بن عمرو الغفاري (١) .

رحيل المسلمين إلى خراسان :

ذكر البلاذري أن زيادًا ولَّى الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان ، وحوَّل معه من أهل المِصرَين(٢) زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم ، وكان فيهم بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي أبو عبد الله رضي الله عنه ، وبِمرْوَ توفي أيام يزيد بن معاوية ، وكان فيهم أيضًا أبو برزة الأسلمي عبد الله بن نضلة رضي الله عنه ، وبها مات ، وأسكنهم دون النهر (٣) .

وهذا الخبر يعطينا صورة من الجهود الدعوية التي بذلها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون في ذلك العهد ، فإن رحيل خمسين ألفا بأسَرهم إلى خراسان سيكون له أثر في دعوة أهل تلك البلاد وبلاد ماوراء النهر ، وذلك بالقدوة الحسنة أوَّلاً ، ثم بالوعظ والتذكير .

جهاد عبيد الله بن زياد :

ذكر الإمام الطبري في حوادث سنة أربع وخمسين للهجرة أن معاوية رضي الله عنه ولَّى على خراسان عبيد الله بن زياد ، وأنه لما

---

(١) فتوح البلدان (٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) يعني الكوفة والبصرة .

(٣) فتوح البلدان / ٥٧٧ .

قدم على خراسان قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل ، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى في جند ففتح رامِيثَن ونصف بيكَنْد -وهما من بخارى - فمِنْ ثَمَّ أصاب البخاريةَ - يعني السبي الذين سباهم من بخارى - .

وذكر في رواية أخرى عن عبادة بن محصن قال: مارأيت أحدًا أشد بأسا من عبيد الله بن زياد ، لَقينَا زحفٌ من الترك بخراسان فرأيته يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا ، ثم يرفع رايته تقطر دما [1] .

وهذا موقف يُذكر لعبيد الله بن زياد حيث يقاتل هذا القتال الشديد وهو أمير القوم ، كما أنه أول قائد مسلم وصل إلى منطقة بخارى .

وذكر البلاذري أن معاوية رضي الله عنه استعمل عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة فقطع النهر في أربعة وعشرين ألفا ، فأتى بيكند ، وكانت خاتون [2] بمدينة بخارى فأرسلت إلى الترك تستمدهم فجاءها منهم دَهْم [3] فلقيهم المسلمون فهزموهم ، وحووا عسكرهم ، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف ألف ، ودخل المدينة وفتح راميثين [4]

(١) تاريخ الطبري ٢٩٧/٥ - ٢٩٨ .

(٢) هي أميرة بخارى في ذلك الزمن .

(٣) أي عدد كبير .

(٤) في فتوح البلدان رامدين وفي تاريخ الطبري راميثن وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم راميثين وذكر أنها قرية ببخارى -١٨/٣- .

وبيكند وبينهما فرسخان ، وراميثين تنسب إلى بيكند [1] .

ويقول الحافظ ابن كثير في بيان جهاد عبيد الله بن زياد : ولقي الترك هناك فقاتلهم قتالا شديدًا وهزمهم هزيمة فظيعة ، بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خفيها، فلبست واحدة وتركت أخرى ، فأخذها المسلمون وقوموا جواهرها بمائتي ألف درهم، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة [2] .

وفي هذا الخبر إشارة إلى لون من ألوان الترف الذي كان يعيش فيه أمراء الكفار ، حيث كانت خفا تلك الأسيرة تبلغ قيمتهما أربعمائة ألف درهم ، وهذا من مؤشرات زوال السلطة حينما يكون الأمر الذي يهتم به الأمراء ويتنافسون عليه هو مظاهر الحياة الدنيا .

جهاد سعيد بن عثمان بن عفان :

ولَّى معاوية رضي الله عنه سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله ورضي عن أبيه خراسان وذلك في عام ستة وخمسين ، فعبر النهر، فلما بلغ خاتون أميرة بخارى عبوره النهر حملت إليه الصلح ، وأقبل أهل السغد والترك وغيرهم إلى سعيد في مائة وعشرين ألفا ، فالتقوا ببخارى ، وقد ندمَتْ خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد ، فلما التقوا انسحب بعض الأعداء من المعركة وانهزم بقيتهم ، فلما رأت خاتون ذلك أعطت سعيدا الرهن وأعادت الصلح .

ودخل سعيد مدينة بخارى ، ثم غزا مدينة سمرقند ، فأعانته

(١) فتوح البلدان / ٥٧٧ .

(٢) البداية والنهاية ٨/ ٦٩ .

خاتون بأهل بخارى ، فنزل على باب سمرقند ، وحلف أن لايبرح أو يفتحها ، فقاتل أهلها ثلاثة أيام ، ثم لزم العدو المدينة وقد فشت فيهم الجراح ، وأتاه رجل فدلَّه عـلى قصر فيه أبناء ملوكـهم وعظمائهم ، فسار إليـهم وحصرهم ، فلما خاف أهل المدينة أن يفـتح القصر عنوة ويقتل من فيه طلبوا الصلح فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهنا من أبناء عظمـائهم ، وعلى أن يدخل المدينة مـتى شاء ويخرج من الباب الآخر ، فأعطوه خمسة عشر من أبناء ملوكهم ، ثم انصرف فلما كان بترمذ حـملتْ إليه خاتون الصلح ، وأقام على ترمذ حتى فتحها [1] .

جهاد عبيد الله بن أبي بكرة :

ومن أخبار الجهاد في تلك البلاد ماأخرجه الإمام الطبري عن أبي المخارق الراسبي قال: لما ولَّى الحجاج المهلب على خراسان وعبيد الله ابن أبي بكرة على سجستان وذلك في سنة ثمان وسبعين فمكث عبيد الله بن أبي بكرة بقـية سنته ، ثـم إنه غزا « رُتْبيل» يعنـي أحد ملوك بلاد ماوراء النهر - وقـد كان مصالحا ، وقد كـانت العرب تأخذ منه قبل ذلك خراجا وربما امتنع فلم يفعل ، فـبعث الحجاج إلى عبيد الله ابن أبي بكرة : أن ناجـزْه بمن معك مـن المسلمين ، فلا ترجع حـتى تستبيح أرضه ، وتهدم قلاعه ، وتقـتل مقاتلته وتسبي ذريته ، فخرج بمن مـعـه من المسلمين من أهل الكوفـة وأهل البـصرة ، وهـو أميـر الجماعة ، فمضى حتى وغل في بلاد رتبيل ، فأصاب من البقر والغنم

---

(١) فتوح البلدان / ٥٧٨ - ٥٧٩ ، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٨٢ .

والأموال ماشاء ، وهدم قلاعا وحصونا وغلب على أرضٍ من أرضهم كثيرة ، وأصحاب رتبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا في بلادهم ،ودنوا من مدينتهم وكانوا منها ثمانية عشر فرسخا فأخذوا على المسلمين العقاب[1] والشعاب ، وخلَّوهم والرساتيق فسُقط في أيدي المسلمين ، وظنوا أن قد هلكوا، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح بن هاني : إني مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلُّوا بيني وبين الخروج ، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فلقيه شريح فقال : إنك لاتصالح على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أُعطياتكم ، قال: لو منَعَنا العطاء ماحيينا كان أهون علينا من هلاكنا ، قال شريح : والله لقد بلغْتُ سنّا ، وقد هلكَتْ لِدَاتِي ، ماتأتي عليَّ ساعة من ليل أو نهار فأظنها تمضي حتى أموت، وقال: ياأهل الإسلام تعاونوا على عدوكم . . إلى أن قال : ياأهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإليّ ، فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا فجعل شريح يرتجز يومئذ ويقول :

أصبحت ذا بَثٍّ أقاسي الكِبَرا ... قد عشت بين المشركين أعصرا

ثَمَّتَ أدركت النبيَّ المنذرا ... وبعده صديقَه وعمرا

ويوم مِهران ويوم تُسترَا ... والجمع في صِفِّينهم والنَّهَرا

وياجُمَيْرات مع المشقَّرا ... هيهات ماأطول هذا عمرا

فقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه [2] .

---

(١) بكسر العين جمع عقبة وهي الطريق الجبلي .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٢ ، البداية والنهاية ٩/ ٢٩ .

وهذه الأبيـات تدلنا على أن شريح بن هانئ رضي الله عـنه قد عُمِّر طويلا فقد أدرك الجاهليـة ثم صحب النبي ﷺ وشارك في فتوح فـارس الأولى ، ثم كـان مع علي بن أبي طالب رضـي الله عنه في الحروب الداخليـة فشهد صـفِّين والنهروان ثم مازال مجـاهدا بعد هذا العمر الطويل الذي يقارب المائة عام أو يزيد حيث إن تلك المعركة التي استشهد فيها كانت عام تسعة وسبعين للهجرة .

وهذا من عـجائب ذلك الجـيل الفريد حـيث اختلط الشـوق إلى الجهـاد في دمائهم وصار جزءًا من حـياتهم ، وأصبحت الشـهادة في سبيل الله تعالى أسمى أمانيهم ، فأكسـبوا بذلك أمتهم الإسلامية عبر الأجيال ذلك الميراث الكبير في الدولة الإسلامية العظمى .

هذا وإننا في محـاولة تقيـيم ماحدث في مـواجهة ذلك الحـصار الذي أحكم الأعداء إغلاقـه على المسلمين لابد أن نقول إن قائد ذلك الجيش عبد الله بن أبي بكرة قـد وقع في شيء من الخطأ حينما توغل في تلك البلاد وهو غيـر خبير بها ولم يقَدِّم أمامـه طلائع يكشفون له الطريق ويبلغونه خبر الأعداء .

كما أنه أخطأ حينما لم يعقد مجلس الشورى لبحث سُبل الخروج من تلك المعضلة ، بل أبرم الصلح مع ملك التـرك على دفع مبلغ من المال ليفتح للمسلمين مخـرجا يخرجون منه ويعودون من حيث أتوا ، فكان من نتائج ذلك أن عارض أكبر قـادته قائد أهل الكوفة شريح بن هانئ ، ثم حصل بسبب ذلك افتراق جيش المسلمين.

إن الذي أقـدم عليه عـبد الله بن أبي بكرة رأي سـديد لأن فيـه

إنقاذًا للمسلمين من تلك المعضلة التي قد ينتج عنها مهلكة ، ولكن الرأي السديد يفقد مفعوله إذا انحلت جماعة الجيش وتفرقت كلمة قادتهم ، ولو أن الأمر تمَّ عن طريق الشورى لربما برزت آراء جيدة من أناس لهم وزنهم يُقنعون الطرف الآخر المعارض للصلح، أو لربما انبثق من بين الرأيين رأي وسط يكون فيه حل لتلك المعضلة ، فكم واجه المسلمون من معضلات ثم حلوها بالشورى .

أما موقف شريح بن هانئ فإنه يدل على قوة إيمانه وصدق توجهه نحو رضوان الله تعالى والدار الآخرة ، ولقد أتْبع القول بالعمل فقاتل الأعداء حتى استشهد هو وبعض من معه .

ولكن هل يقال إنه في ذلك الإقدام قد خالف أمر القائد وطاعة القائد واجبة ؟

نعم يعتبر ذلك مخالفة ، ولكنه فهم أن القائد قد ارتكب مخالفة شرعية في ذلك الانهزام والتسليم للأعداء ، والبَتٌ بذلك الأمر بدون مشورة أهل الرأي ، وإنما الطاعة في المعروف، لكن كان الأولى في هذا الموقف أن يبذل جهده في إنكار ماحدث وأن يحاول تغيير رأي القائد وإقناع الناس ليساعدوه في ذلك فإن حصل له مايريد من الرأي وإلا فإن عليه أن يتبع الجماعة ، وأن لايكون سببا في فرقة المسلمين ، لأن ذلك يعزز من موقف الأعداء ، وهو لم يكسب في موقفه الشجاع نصراً للمسلمين بشكل ظاهر ، وإنما كسب الشهادة هو ومن رُزقها معه، وخلَّد لتلك البلاد شرفا عاليا أن ضمت بين أحضانها جثث أولئك الصالحين الأتقياء ، فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم على ماقدموا أحسن الجزاء .

أما الذين نجوا من تلك المعركة فإنهم خرجوا من بلاد رتبيل - كما جاء في رواية الطبري المذكورة - فاستقبلهم من خرجوا إليهم من المسلمين بالأطعمة ، فإذا أكل أحدهم وشبع مات ، فلما رأى ذلك الناس حذروا يطعمونهم ، ثم جعلوا يطعمونهم السمن قليلا قليلا حتى استمرؤوا .

جهاد ابن الأشعث :

جاء في خبر الإمام الطبري المذكور أن الحجاج بن يوسف تأثر من ذلك فكتب إلى عبد الملك يستأذنه في بعث جيش كبير لتأديب الترك وفتح بلادهم فأذن له في ذلك فبعث أربعين ألفًا من أهل الكوفة وأهل البصرة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وأنه سار إلى بلاد ماوراء النهر فأوقع بالأعداء واستولى على بعض بلادهم وأموالهم ، ثم قفل راجعًا على أمل أن يعود إليهم في العام القادم ، وأنه كتب إلى الحجاج بذلك فلامه واتهمه بالضعف وأمره بالعودة لإكمال الفتح، ثم ماكان من فتنة ابن الأشعث حينما ثار على الحجاج وخلع بيعته وجرت بينه وبين الحجاج حروب طويلة كانت نهايتها على ابن الأشعث في دير الجماجم حيث انتصر عليه جيش الشام بقيادة الحجاج[1] .

جهاد المهلب بن أبي صفرة :

إضافة إلى ذلك كانت هناك جهود طيبة في التمهيد لفتح بلاد ماوراء النهر من المهلب بن أبي صفرة الذي كان واليا على خراسان

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٣ - ٣٦٧ .

فقد أناب ابنه المغيرة على « مرو» وارتحل بجيشه حتى قطع النهر وقاتل الترك ، ثم استقر ببلدة «كِسْ» ورابط فيـها سنتين محاولاً تثبيت أقدام المسلمين في أوائل تلك البِلاد ليستطيـعوا بعد ذلك التوغل داخل تلك الممالك بأمان (١) .

ومن المواقف المذكورة في تلك الحروب ماكان من يزيد بن المهلب وقد أرسله أبوه إلى مرو ليخلفه في إمـارتها لما توفي أخوه المغيرة وقد واجه جيشًا من الترك في خمسمائة رجل وكان هو في ستين أو سبعين فطلب التـرك منهم شيـئًا فـأبى يزيد ولكن صاحـبه مُـجَّاعة العـتكي أعطاهم شيئًـا من المتاع ، فذهبوا ثم غدروا ورجعـوا فقال يزيد : أنا كنت أعلم بهم فـقاتِلوهم ، فـقاتَلوهم واشـتد قـتالهم وأصـاب يزيد عظيما من عظمائهم وأصيب هو في ساقه ، ثم تحاجزوا وطلب الترك منهم شيئًـا من المتاع فرفض يزيد ، فقال له مُجَّـاعة : أذكرك الله قد هلك المغيرة ، وقـد رأيت مادخل على المهلب من مصـابه ، فأنشدك الله أن تصاب اليوم - وكان المهلب قد وجد على فقد ابنه المغيرة وجداً شديداً - فـقال يزيد : إن المغـيرة لم يَعْدُ أجله ولـست أعدُو أجلي ، فرمى لهم مُجَّاعة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا (٢) .

وهذا دليل على قوة إيمان « يزيد »بقضاء الله وقدره ، حيث طلب منه مجاعـة تفادي القتال إبقاء على نفســه فرد عليه ببيان حتـمية بلوغ الأجل المحدد من العمر وعدم تجاوز ذلك بلحظة واحدة .

---

(١) تاريخ الطبري ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٣٥١ .

وهكذا يصنع الإيمان القـوي من المؤمنين رجـالا أبطالا لايهـابون خوض الأهوال ولاركوب الصعاب .

* * *

٢ - فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي -

أما العهد الـذهبي بالنسبة لفتوح بلاد ماوراء النهـر فقد بدأ بولاية قتيبة بن مسلم الباهلي ، هذا الرجل الشجاع والقيادي الماهر والإداري المحنك، حيث بذل كل طاقـته في ذلك الفتح حـتى ارتبط به وأصبح بحقٍّ فاتح تلك البلاد .

ولقد استفتح إمارته بخطبة جهادية رائعة قال فيها : إن الله أحلَّكم هذا المحل ليـعزَّ دينه ، ويذُبّ بكـم عن الحرمـات ، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما [١] ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[الصف: ٩] ووَعَدَ المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخـر عنده فقال﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عمن قُـتل في سبيل الله أنه حيّ مرزوق فقال﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾[آل عـمـران: ١٦٩] فتنجَّزوا مـوعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهوينَى[٢] .

---

(١) يعني ذلا .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٤ .

وهكذا يتبين لنا من خطبة قتيبة أن هدفه الأول في إمارته على خراسان هو دفع الناس إلى الجهاد في سبيل الله تعالى بحزم وقوة، فانطلق في تحقيق هذا الهدف غير متردد ولاوجل ، حتى فتح بلاد ماوراء النهر وأقرَّ حكم الإسلام فيها ، وأشرف على الصين و أخذ من ملكها الجزية .

ولقد سارع بعض الأمراء القريبين منه إلى عقد الصلح معه لسبق علمهم بقوته وحزمه ،وأنه لن يتركهم حتى يوطئ الخيل بلادهم، فأطلقوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين وبادروا إلى الصلح .

وقد أخرج ابن جرير في ذلك عن محمد بن المثنى أن « نيزك طرخان» - يعني ملك طرخان - كان في يديه أسراء من المسلمين، وكتب إليه قتيبة حين صالح ملك شومان فيمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم ، ويهدده في كتابه ، فخافه نيزك، فأطلق الأسرى، وبعث بهم إلى قتيبة فوجه إليه قتيبه سُلَيمًا الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه ، وكتب إليه كتابا يحلف فيه بالله : لئن لم يَقْدَم عليه ليغزونَّه ، ثم ليطلبنه حيث كان ، لايقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك ، فقدم سليم على نيزك بكتاب قتيبة - وكان يستنصحه - فقال له : ياسُلَيم ماأظن عند صاحبك خيرا ، كتب إلي كتابا لايُكتب إلى مثلي ، قال له سليم: ياأبا الهيَّاج إن هذا رجل شديد في سلطانه ، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر ، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك ، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر، فقدم نيزك مع سليم على قتيبة فصالحه أهل

باذغيس في سنة سبع وثمانين على أن لايدخل باذغيس [١] .

ومن هذا النص ندرك بعض مظاهر عظمة قتيبة القيادية فقد حصل في هذا الكتاب التهديدي القوي على فك أسرى المسلمين كما أنه تفادى بذلك إقحام المسلمين في معارك جانبية تشغلهم عن الهدف الأهم وهو فتح بلاد ماوراء النهر .

فتح مدينة بيكند :

أخرج الإمام الطبري عن عدد من الرواة : أن قتيبة لما صالح نِيزَك أقام إلى وقت الغزو ، ثم غزا في تلك السنة - سنة سبع وثمانين- بيكند ، فسار من « مرو» [٢] وأتى « مرو الرُّوذ» ثم أتى « آمل» ، ثم مضى إلى « زَمّ » فقطع النهر ، وسار إلى بيكند - وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر يقال لها مدينة التجار على رأس المفازة من بخارى- فلما نزل بعَقْوتهم [٣] استنصروا الصُّغْد واستمدوا من حولهم ، فأتوهم في جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول ، ولم يَجْرِ له خبر شهرين وابطأ خبره على الحجاج، فأشفق الحجاج على الجند ، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار وهم يقتتلون كل يوم .

قال : وكان لقتيبة عين يقال له تَنْذُر من العجم فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يفثأ عنهم قتيبة [٤] ، فأتاه فقال : أخْلِني

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٢٨ .

(٢) يعني مرو الشاهجان .

(٣) أي بساحتهم .

(٤) يعني أن يصرفه عن قتالهم .

. فنهض الناس واحتبس قتيبة ضرار بن حصين الضَّبِّي ، فقال تنذر : هذا عامل يقــدم عليك وقد عُزِل الحجــاج . فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فدعا قتيبة « سـياه » مولاه فقال : اضرب عنق تنذر، فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك وإني أعطي الله عـهدًا إن ظهـر هذا الحديث من أحـد حـتى تنقضي حـربنا هذه لألحـقنَّك به ، فاملـك لسانك ، فـإن انتشــار هذا الحـديث يفتُّ في أعضاد الناس ، ثم أذن للناس .

قال : فـدخلوا فراعَهم قتلُ تنذر ، فـوجموا وأطرقوا ، فـقال: قتيـبة: مايروعكم من قتل عـبد أحانه الله ؟ [١] قـالوا : إنا كنا نظنه ناصحًا للمسلمين ، قال : بل كان غاشـا فأحانه الله بذنبه فقد مضى لسبيله فاغدوا على قتال عدوكم ،والْقَوهم بغير ماكنتم تلقونهم به ».

وهكذا يكون الحــزم وسـداد الرأي ،والتـعلـق الكريم بالأهداف العالية، إنه حينما أثار ذلك المولى الخائن أمر عزل الحجاج وبعْث والٍ آخر على خراسان ، لم يَدُر في خلد قتيبة أمر مستقبله ومستقبل قبيلته وأعوانه ، وإنما كان الـذي يهيمن عليه هو مـستقبله مع أعـدائه، فقد نصب أمامه هدفا عاليا يسعى لتحقيقه ،وهو أن يُظهر عزة الإسلام في الأرض ، وأن يُخـضع ممالك الطغـيان لهـذا الدين . وإذا كان الأمـر كذلك فليبق أميرًا أوليكن الأمير غيره . كما أن في موقفه هذا تغليب جـانب الحذر من مـكائد الأعداء وعـدم الخـفة والإسـراع في التـأثر بأراجـيفـهم التي يقصــدون منها الـفَتَّ في أعضــاد المسلمين وتوهين أمرهم.

---

(١) أي أهلكه .

وفيما قام به من المبادرة إلى قتل ذلك الرجل، وأخذ العهد على جليسه حزم وسداد في الرأي لأن فيه قطعا لموارد الفتنة قبل استفحالها.

وهكذا تحطمت مكيدة الأعداء أمام حزم هذا القائد الكبير ورسوخ يقينه .

قال : « فغدا الناس متأهبين وأخذوا مصافهم ومشى قتيبة فحضَّ أهل الرايات ، فكانت بين الناس مشاولة[1] ثم تزاحفوا والتقوا ، وأخذت السيوف مأخذها ، وأنزل الله على المسلمين الصبر فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم منح الله المسلمين أكتافهم ، فانهزموا يريدون المدينة ، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسراً كيف شاؤوا ، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل ، فوضع قتيبة الفَعَلَة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم ، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة » .

وهكذا كان جزاء الاحتساب والصبر وحسن الظن بالله تعالى والثقة بنصره ، فقد كان الأعداء في بلادهم ، ويأتيهم المدد متى أرادوا من الطعام والسلاح والمقاتلين ، ولكن المسلمين محصورون لامَنَعَة لهم بعد الله جل وعلا إلا بثقتهم بأنفسهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله تعالى .

قال : « وارتحل عنهم يريد الرجوع : فلما سار مرحلة أو ثنتين، وكان منهم على خمسة فراسخ نقضوا وكفروا ، فقتلوا العامل

---

(١) يعني قتالا في الرماح .

وأصحابه، وجَدَعوا آنُفَهم وآذانهم ، وبلغ قتيبة فرجع إليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهراً ، ثم وضع الفَعَلَة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب ، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم ، فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة ، فطلبوا الصلح فأبى وقاتلهم فظفر بهم عنوة ، فقتل من كان فيها من المقاتلة » .

وهكذا كان قتيبة مصراً على الفتح ، حازمًا في عدم قبول الصلح، وذلك لأنهم نقضوا العهد ، وقتلوا المسلمين ومثلوا بهم، فما جزاؤهم إلا القتل وتطهير الأرض منهم .

وبهذا انتهى قتيبة من أول معركة شرسة يخوضها مع أولئك الأعداء ، وأصبح لها مابعدها ، وعَرف فيه الترك رجلا قويًا لايهادن الباطل ولايهاب الأهوال .

قال : « وكان فيمن أُخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة : أنا أفدي نفسي ، فقال له سُلَيْم الناصح : ماتبذل ؟ قال : خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف ، فقال قتيبة : ماترون ؟ قالوا : نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين ، وماعسى أن يبلغ من كيد هذا ! قال : لا والله لاتروعٍ بك مسلمة أبدا ، وأمر به فقتل [1] .

وهكذا أصر قتيبة على قتل ذلك الرجل الذي كان يخطط للأعداء ويحرضهم على المسلمين ، وكان قتيبة موفقًا حينما لم يقبل منه الفداء مع ضخامته لأنه يقاتل المسلمين بفكره وتدبيره ولن يكتفي بهذا الموقف

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٢٩ - ٤٣١ .

الخائن بل سيستمر في تدبير المؤامرات ضد المسلمين ، فالحكمة كل الحكمة في قطع دابره .

وحينما لاحظ بعض مستشاري قتيبة ضخامة المال الذي يريد أن يفدي نفسه به ، وهَوَّنوا عليه مايمكن أن يقوم به من مكيدة لاحظ هو مستقبل وضع المسلمين في ذلك البلد ، فرأى أن ذلك المبلغ وأضعافه لايعادل ترويع امرأة من المسلمين ، بما يترتب على مكائده من أذى يلحق بالمرابطين في تلك البلاد ، وهذا يدلنا على الأهداف السامية التي كانت وراء إقدام قتيبة على فتح تلك البلاد .

هذا وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثمان وثمانين أن قتيبة غزا «تومشكث وراميثنة » من قرى بخارى وأن أهلهما صالحوه فانصرف عنهم، وجعل على ساقة الجيش أخاه عبد الرحمن في طائفة من الجيش وأن الترك اجتمعوا مع الصغد وأهل فرغانة بقيادة ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف ، وأنهم لحقوا بعبد الرحمن فقاتلهم بجيشه وثبت لهم وأرسل إلى قتيبة فرجع وقد كادوا يستأصلون المسلمين فثبتهم الله وهزموا أعداءهم .

وهذا موقف عظيم يذكر لعبد الرحمن بن مسلم الذي كان غالبا في المقدمة عند الغزو وفي الساقة عند القفول ، وفي هذا الموقف دلالة على عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة حيث ثبت جزء من جيش قتيبة لمائتي ألف ولم يفروا (١) .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٣٦ ، تاريخ خليفه / ٣٠٠ .

فتح مدينة بخارى :

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم الباهلي غزا بخارى عام تسعة وثمانين وأنه فتح قرية دونها تسمى «راميثنه» وأنه رجع من غزوته تلك ، وأن الحجاج كتب إليه يأمره بالعودة إلى غزو ملك بخارى، وأن قتيبة رجع فلقيه الصُّغْد وأهل كِشّ ونَسَف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه بجمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين ، ثم أعطاه الله الظفرعليهم فقال نَهار بن تَّوسعة :

وباتت لهم مِنَّا بخرقان ليلة وليلتنا كانت بخرقان أطولا

ثم ذكر أن قتيبة لم يستطع فتح بخارى ذلك العام فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج :أن صوِّرْها لي، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج :أنْ ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وأِتها من مكان كذا وكذا .

قال وقيل : كتب الحجاج : أنْ كسْ بكشٍّ وانسُف نسف ، ورِدْ وردان ، وإياك والتحويط ، ودعني من بُنَيَّات الطريق .

ومن كتابات الحجاج هذه وماقبلها نأخذ فكرة عن اهتمامه البالغ باستمرار الغزو والفتح ، وقد كان ذلك من أسباب قيام ابن الأشعث بالثورة عليه ، حيث اكتفى ابن الأشعث بغزو أدنى بلاد ماوراء النهر، فلامه الحجاج واتهمه بالضعف .

ثم استمر الحجاج في حث قتيبة على مواصلة الغزو وأمره أن لايرجع حتى يفتح بخارى ، ولما استعصى ذلك على قتيبة أمره

الحجاج ببعث صورة لتلك المدينة ، فنظر باجتهاده إلى موطن الضعف فيها فأشار على قتيبة بالمكان الذي يدخلها منه ، ثم أمر قتيبة بأن يدمِّر المدن التي تقف عقبة في طريقه ،وذكر منها مدينة نسف، وأمره أن يتجه رأسًا إلى وردان ملك بخارى ، وأن يجعلها بعد الفتح معقلا له ينطلق منها ، وعبَّر بقوله « ارجع إلى مراغتك » عن الأمر بلزوم فتح بخارى تشبيهًا لها بمراغة الدابة التي تتقلب فيها .

وأمره أن يجتنب سياسة التحويط حول الهدف ابتغاء اليسر والسهولة ، وأن يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف المقصود دون تعريج على الأهداف الجانبية التي تحقق بعض الغنائم والنصر المؤقت .

وهذا يدلنا على أن الحجاج باهتمامه ومتابعته المتلاحقة للقادة كان عاملا مهما في فتح بلاد ماوراء النهر ، وتلك حسنة توضع في مقابل سيئاته المشهورة .

وفي فتح بخارى أخرج الإمام الطبري بإسناده عن إدريس بن حنظلة « أن كتاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن « وردان خذاه » ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه، ويُعرِّفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه ، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازيا فأرسل وردان خذاه إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرونهم ، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم ، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليها ليقاتلوهم ، فقالت الأزد : اجعلونا على حدة ، وخلّوا بيننا وبين قتالهم ، فقال قتيبة: تقدموا ،

فتقـدموا يقاتلونهم ، وقـتيبة جالـس عليه رداء أصفر فـوق سلاحه، فصبروا جميعًا مليًا ، ثم جـال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قـتيبة ، وجازوه، حتى ضرب الـنساء وجوه الخيل وبكَيْن ، فكرُّوا راجـعين ، وانطوت مـجنبتـا المسلمين على التـرك ، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم ، فوقف الترك على نشز[1] .

هذا وإن في إقدام الأزد على مواجـهة ذلك الجيش الغازي مـوقفًا يذكر لهم ، فإن الـتنافس في مواجهة الأخطار فـضيلة وشرف، وفي تقهقـرهم أمام الترك دلالة على قوة بأس الترك ومهـارتهم في القتال، وهذا يدلنا على سـبب مهم في تأخر المسلمين فـي فتح بلادهم وتردد بعض القادة في التوغل في أرضهم ، حـيث يتمتع الترك ومن حولهم من القبائل بقوة قـتالية عالية وصبـر على الجلاد، وإن من أهم أسباب ذلك كون حياتهم تميل إلى شيء من الخشونة ، فلم تفسدهم الحضارة المادية كما هو الحال في دولة فارس .

هذا وإن في ثبات قـتيبـة في مركز القيـادة مع هذا التقهـقر دلالة على رباطة جأشه ، ومقدرته الفائقـة على التفكير وحسن التصرف في مواجهة المواقف الصعبة المفاجئـة ، فقد أوعز حالاً إلى مجنبتي جيش المسلمين بالهجوم على الأتراك فأطبقـوا عليهم وهزموهم ، وألجئوهم إلى مرتفع من الأرض يُحَصِّنه نهر بينهم وبين المسلمين .

قال : « فقال قتـيبة : من يزيلهم لنا عن هذا الموضع ؟ فلم يُقدِم عليهم أحـد ، والأحياء كلهـا وقوف ، فمـشى قتيـبة إلى بني تميم،

---

(١) يعني مرتفع من الأرض .

فقال: يابني تميم إنكم أنتم بمنزلة الحطمية ، فيومٌ كأيامكم ، أَبِي لكم الفداء ، قال : فأخذ وكيع اللواء بيده وقال : يابني تميم أتسلمونني اليوم ؟ قالوا : لا ياأبا مطِّرف - وهُرَيْم بن أبي طلحة المجاشعي على خيل بني تميم ، ووكيع رأسهم - والناس وقوف ، فأحجموا جميعًا ، فقال وكيع : ياهريم قَدِّم ، ودفع إليه الراية ، وقال : قدم خيلك ، فتقدم هريم ، ودبَّ وكيع في الرجال ، فانتهى هريم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف ، فقال له وكيع : أَقحِم ياهريم ، قال: فنظر هريم إلى وكيع نظر الجمل الصئول ، وقال : أنا أقحم خيلي هذا النهر، فإن انكشفت كان هلاكها ! والله إنك لأحمق ، قال: يابن اللَّخناء ألا أراك ترد أمري ! وحذفه بعمود كان معه ، فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال: مابعد هذا أشد من هذا ، وعَبَّر هريم الخيل ، وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر وقال لأصحابه : من وطَّن منكم نفسه على الموت فليعبر ، ومن لا فليثبت مكانه ، فما عبر معه إلا ثمانمائة راجل ، فدبَّ فيهم ، حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا حتى دنا من العدو ، فجعل الخيل مجنبتين ، وقال لهريم : إني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل ، وقال للناس : شُدُّوا ، فحملوا فما انثنوا حتى خالطوهم . وحمل هريم خيله عليهم ، فطاعنوهم بالرماح ، فما كفُّوا عنهم حتى حدَّروهم عن موقفهم ، ونادى قتيبة : أما ترون العدو منهزمين ! فما عبر أحد ذلك النهر حتى ولَّى العدو منهزمين ، فاتبعهم الناس .

وهكذا تبين لنا موقف بني تميم الشجاع حيث أحجمت كل القبائل عن مواجهة أولئك الذين تحصنوا بذلك المرتفع ، فلم يُقْدم

على هذا الموقف الهائل إلا وكيع بن أبي أسود التميمي وقبيلته، ولقد أحسن صنعًا حينما عرض قومه على الموت، فاختار منهم من تطوع مقبلا على الشهادة ، لأن مثل هذا الموطن المهلك لايقدم عليه من له رغبة في الحياة ، فاستطاع هؤلاء الأبطال - على قلتهم - أن يزيلوا الأعداء من موقعهم ذلك ، لأن كل واحد منهم يعدل عشرات من الجنود العاديين .

وقال قتيبة : من جاء برأس فله مائة ، فأُتِيَ برؤوس كثير من القتلى .

وهذا يعتبر دافعًا جيدًا للجنود ليبذلوا كل طاقتهم في ملاحقة العدو.

وجُرح يومئذ ملك الترك خاقان وابنه،وتمّ فتح مدينة بخارى[1] .

فتح مدينة سمرقند[2] :

أخرج الإمام الطبري في ذلك عن شيوخه : أن قتيبة لما قبض صلح خوارزم قام إليه المُجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي فقال: إن لي حاجة فأخْلِني ، فأخلاه ، فقال : إنْ أردت الصُّغْد يوما من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا ، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام ، قال : أشار بهذا عليك أحد ؟ قال : لا ، قال : فأعلمته أحدا؟ قال : لا ، قال : والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك ، فأقام يومه ذلك ، فلما أصبح من الغد دعا عبد الرحمن- يعني أخاه-

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٤٢ - ٤٤٤ ، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٣ .

(٢) سمرقند من أهم مدن ماوراء النهر وتعتبر الآن من المدن المهمة في أوزبكستان .

فقال سِرْ في الفرسان والمُرَامية وقدِّم الأثقال إلى مرو، فَوُجِّهت الأثقال إلى مرو ، ومضى عبد الرحمن يتبع الأثقال يريد مرو يومه كله ، فلما أمسى كتب إليه : إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى مرو، وسِرْ في الفرسان والمرامية نحو السغد ،واكتم الأخبار فإني في الأثر.

قال : فلما أتى عبد الرحمن الخبرُ أمر أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مرو ، وسار حيث أمره ، وخطب قتيبة الناس فقال : إن الله تعالى قد فتح لكم هذه البلدة في وقتٍ الغزوُ فيه ممكن ، وهذه السغْد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا مَنَعُونا ماكنا صالحنا عليه « طرخون» وصنعوا به مابلغكم وقال الله تعالى ﴿ **وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا** ﴾ [**الفتح** : ٢١].

قال : فأتى السغْد وقد سبقه إليها عبد الرحمن بن مسلم في عشرين ألفا ، وقدِم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبخارى بعد ثلاثة أو أربعة من نزول عبد الرحمن بهم ، فقال : إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

فحصرهم شهرا ،فقاتلوا مراراً في حصارهم من وجه واحد» (١).

وهكذا كان قتيبة حازما حينما اغتنم تلك الفرصة وقَبِل مشورة المجشَّر السلمي ، وكان من مظاهر حزمه احتياطه البالغ في كتمان خبر مسيره إلى أهل سمرقند حتى يصل إليهم قبل أن يستمدوا الملوك المجاورين لهم ، فهدَّد صاحب المشورة إن هو أعلنها ، ووجَّه أخاه

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢ ، باختصار .

عبـد الرحمن وأمره أن يكتم الخـبر ثم خطب الناس وأعلمهم بمسيره ومسوغـات ذلك بعد أن وثق من عدم شيـوع الخبر قبل وصـول أخيه عبد الرحمن إلى ساحة القوم .

وقد بـين في خطبتـه أن القوم قـد نقضـوا العهـد فزال عهـدهم واستحقوا العقاب وأصبح تطهير البلاد منهم أمرًا لازما .

وفي رواية أخرى للطبري عن نهشل بن يزيد عن عمه - وكان قد أدرك ذلك كله - قال : لما رأى غوزك - يعني ملك سمرقند - إلحاح قتيبة عليهم كـتب إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة [1] وخاقان : إنا نحن دونكم فـيما بينكم وبين الـعرب ، فإن وُصِل إلينا كنـتم أضعف وأذل ، فـمهـما كـان عندكم من قوة فـابذلوها ، فنظروا في أمـرهم فقالوا: إنما نؤتى من سفلتنا ، وإنهم لا يَجدُون كوَجْدنا، ونحن معشر الملوك المعنيُّون بهـذا الأمر ، فانتَخبـوا أبناء الملوك ، وأهل النجدة من فتيان ملوككم ، فليخرجوا حتى يأتوا عسكر قتيبة فليُبيِّتْ فإنه مشغول بحصـار الصُّغـد ، ففـعلوا وولَّوا عليهم ابنًا لخـاقان ، وسـاروا وقد أجمعوا أن يبيِّتوا العسكر .

وبلغ قتـيبـة فانتخـب أهل النجدة والبأس ووجـوه الناس، فكان شعبة بن ظهـير وزهير بن حيان فيمن انتخب فكانوا أربعـمائة ، فقال لهم: إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم وتأييـده إياكم في مزاحفتكم ومكاثرتكم ، كل ذلك يُفلجكم الله عليهم فأَجْـمَعُوا على أن يحتالوا غِرَّتكم وبيـاتكم ، واختاروا دهاقينهم وملوكـهم وأنتم دهاقين العرب

---

(١) الشاش وفـرغانة من مناطق دولة أوزبكستـان اليوم ، وتعتـبر طاشكند العاصـمة من منطقة الشاش .

وفرسانهم ، وقد فضلكم الله بدينه ، فأبلُوا الله بلاء حسنا تستوجبون به الثواب ، مع الذب عن أحسابكم .

قال : ووضع قتيبة عيونا على العدو حتى إذا قربوا منه قدر مايصلون إلى عسكره من الليل ، أدخل الذين انتخبهم ، فكلَّمهم وحضَّهم ، واستعمل عليهم صالح بن مسلم ، فخرجوا من العسكر عند المغرب ، فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الذين وُصفوا لهم ، ففرَّق صالح خيله ، وأكمن كمينًا عن يمينه، وكمينا عن يساره ، حتى إذا مضى نصف الليل أو ثلثاه جاء العدو باجتماع وإسراع وصمت ، وصالحٌ واقف في خيله ، فلما رأوه شدوا عليه ، حتى إذا اختلفت الرماح شدَّ الكمينان عن يمين وعن شمال، فلم نسمع إلا الاعتزاء ، فلم نَرَ قَومًا كانوا أشد منهم .

قال : وقال رجل من البراجم : حدثني زهير أو شعبة قال: إنا لنختلف عليهم بالطعن والضرب إذا تبينت تحت الليل قتيبة ، وقد ضربت ضربة أعجبتني ، وأنا انظر إلى قتيبة فقلت : كيف ترى بأبي أنت وأمي ، فقال : اسكت دَقَّ الله فاك ، قال : فقتلناهم فلم يُفلت منهم إلا الشريد ، وأقمنا نحوي الأسلاب ونحتزُّ الرؤوس حتى أصبحنا ،ثم أقبلنا إلى العسكر ، فلم أر جماعة قط جاؤوا بمثل ماجئنا به ،مامنا رجل إلا معلِّق رأسا معروفا باسمه ، وأسيرٌ في وثاقه.

قال: وجئنا قتيبة بالرؤوس فقال: جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرا ، وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باح لي بشيء، وقرن بي في الصلة والإكرام حيَّان العدوي وحُلَيسًا الشيباني، فظننت

أنه رأى منهما مثل الذي رأى مني ، وكسر ذلك أهلَ السغْد، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية فأبى وقال: أنا ثائر بدم طرخون كان مولاي وكان من أهل ذمتي [1] .

وفي بيان صفة جيش الأعداء المنتخب جاء في إحدى روايات الطبري « فسألناهم [2] عمَّن قتلْنا ، فقالوا : ماقَتلْتم إلا ابن ملك أو عظيمًا من العظماء أو بطلا من الأبطال ، ولقد قتلْتم رجالا إن كان الرجل ليعدل بمائة رجل » [3] .

وهكذا جاء المدد لأهل سمرقند الذي من أجله كتم قتيبة خبر إقدامه عليهم ولكن مجيئه كان بعد أن أحكم حصار المدينة ، ولقد كان مجيء ذلك الجيش المنتخب من أبناء الملوك والأبطال خيرًا كثيرًا على المسلمين في مستقبل جهادهم ، حيث قتلوا خيرة فرسان فرغانة والشاش ، وأسروا بعضهم ، فسهَّل عليهم ذلك غزو بلادهم .

وهكذا أرادها ملوك الشاش وفرغانة مكيدة للمسلمين ليأخذوهم على غرة ، وانتخبوا أفضل ماعندهم من المقاتلين ، ولكن المسلمين قد تفوقوا عليهم كثيرًا في الرصد الحربي ، فعلموا عن تحركهم، فانتخب قتيبة جيشًا من أهل النجدة بقيادة أخيه صالح بن مسلم ، ثم بث عيونه فعلم منهم الليلة التي سيصلون فيها .

---

(١) طرخون حاكمهم الأول الذي عقد الصلح مع قتيبة وقد خلعوه وولوا نيزك ، يعني أن أهل الذمة الذين يدفعون الجزية يجب على المسلمين حمايتهم - تاريخ الطبري ٦/٤٧٦- ٤٧٨ - .

(٢) يعني الأسرى .

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٤ .

ورجعت مكيدة الأعداء عليهم ، وكان صالح موفقًا حينما وضع لهم الكمينين ، فلم يفجأ جيش الأعداد إلا المقاتلون من المسلمين على قارعة الطريق ، وكان خروج الكمينين عند التحام المعركة مفاجأة أخرى مذهلة ، بدَّدت طاقاتهم ، فقُتل أكثرهم وأُسر بعضهم .

وهكذا يظهر المسلمون في كل حروبهم في القرن الأول أعظم تفوقًا في التخطيط الحربي، وفي المواجهات الميدانية .

ولقد كان غير خافٍ على قتيبة أن ذلك الجيش المنتخب سيتقدمه رَصَد وعيون، خاصةً وأن فيهم أبناء ملوكهم، فلم يُخرج الجيش الإسلامي المُنتخب لقتالهم إلا ليلة وصولهم، حيث أخرجهم مع المغرب، ومن المرجح أن عيون الأعداء قد خَبَروا الطريق إلى جيش المسلمين في النهار فأفادوا جيش الأعداء القادم بعدم استعداد المسلمين للقائهم، وإنما قصد قتيبة أن يأخذهم ليلا على غرة كما أرادوا هم ذلك فنجح في توريطهم، وكان عامل المفاجأة له أكبر الأثر في هزيمتهم .

ومما يشاد به حضور قتيبة تلك الليلة ومراقبته سير المعركة ، فلم يعتمد على القائد المكلف ويَبِتْ هو بأمان وطمأنينه وذلك لاحتمال أن يتغلب جيش الأعداء بعض الشيء وينجحوا في اختراق جيش المسلمين المعدِّ لهم ، وهنا لابد أنه كان في تخطيط قتيبة أن ينتدب لهم من يقاومهم قبل وصولهم إلى الجيش المرابط حول المدينة ، فلما رأى ماقام به جيشه المنتخب من اصطلام جيش العدو وإبادته حمد الله تعالى على نجاح الخطة ، هذا وإن شعور الجيش بحضور قائده الأعلى ومراقبته يعطيهم دفعة قوية نحو بذل أقصى ماعندهم من قوة ، خاصة

وأنه لايُفترض في كل الأحوال توفر من لايخلطون إرادة الآخرة بشيء من جاه الدنيا .

ومما يشاد به أيضًا خطبة قتيبة بن مسلم التي ربط بها ذلك الجيش بالله تعالى ، فنبَّههم إلى أن ماقاموا به من انتصارات إنما هي بتوفيق الله جلا وعلا ، وأن الأعداء قد هالهم واقع تلك الانتصارات ، فاختاروا أفضلهم في الحرب لالتماس غرة المسلمين ، ثم ثناؤه على جيشه المنتخب ببيان أنهم عظماء المسلمين وفرسانهم ، وهذا يعطيهم دفعة قوية نحو البذل والتضحية ، ثم الإشارة المهمة إلى مايرجح كفة المسلمين إن تعادلوا مع أعدائهم في الكفاءة القتالية ،وهو أن الله تعالى فضَّل المسلمين بدينه ، فكل الفريقين منتخَبون من أهل الكفاءة الحربية ولكن الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها المسلمون لايعادلها أي قوة معنوية أخرى ولايقاربها .

ثم إشارته المهمة إلى الهدف الأعلى من قتالهم، وهو أن يبلغوا رضوان الله تعالى عنهم ، إلى جانب مايشتركون به مع غيرهم من كونهم يدافعون عن أحسابهم ، وهذا دليل على قوة ارتباط قتيبة بالله تعالى ، الأمر الذي كان له أبلغُ الأثر في انتصاراته المتوالية .

ونعود الآن إلى خبر فتح قتيبة مدينة سمرقند .

قال الإمام الطبري في سياق روايته المذكورة عن شيوخه : « وَضَع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها ، وهو في ذلك يقاتلهم لايُقلع عنهم، وناصَحه من معه من أهل بخارى وأهل خوارزم ، فقاتلوا قتالا شديدًا وبذلوا أنفسهم » .

وهكذا كان المسلمون متفوقين حتى في العتاد الحربي ، فليس للمدن المحصنة من سلاح آنذاك إلا المجانيق ونحوها من الآلات الثقيلة، والحصون وحدها هي التي كانت تقي الأعداء من المسلمين في ذلك الوقت ، أما المسلمون فليس لهم حصون إلا ظهور خيولهم، وهذه لايمكن أن يحدَّ من حركتها أي سلاح يخترعه الأعداء، ولذلك لم يتمكن أعداؤهم في كل ميدان من استعمال الأسلحة الثقيلة ضدهم، وليس بإمكانهم أن يجاروهم في جولاتهم على ظهور الخيل لتفوق المسلمين الباهر في هذا المجال .

ثم ذكر في الرواية المذكورة أن قتيبة اختار الشجعان وأهل الغناء في الحرب فجمع لهم جيد السلاح وزحف بهم فرسانا ورجالا نحو السور ، وثلم ثلمة بالمنجنيق، وقال قتيبة : ألحُّوا عليهم حتى تعبروا الثلمة ، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة ، ورماهم الصغد بالنشاب فوضعوا تَرَستَهم ، فكان الرجل يضع ترسه على عينه ثم يحمل ، حتى صاروا على الثلمة ، فقالوا له : انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا .

ثم ذكر صلحه معهم ، وأنه دخل المدينة وبُني له فيها مسجد وصلى فيه ، وأنه أُتِي بالأصنام فسلُبت[1] ، ثم وُضعت بين يديه، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت ، فأمر بتحريقها ، فقالت الأعاجم : إن فيها أصناما من حرقها هلك ، فقال قتيبة : أنا أحرقها بيدي ، فجاء «غوزك» [2] فجثا بين يديه وقال: أيها الأمير إن شكرك

(١) يعني أزيل ماعليها من حلية الذهب وغيره .

(٢) يعني ملك سمرقند .

علي واجب ، لا تعرض لهـذه الأصنام ، فدعا قـتيبـة بالنار ، وأخذ شعلـة بيده ، وخرج فكبَّـر ثم أشعلهـا ، وأشعل الناس فـاضطرمت فوجدوا من بقايا ماكان فيها من مـسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال (١) .

وهكذا كان قتيبة صارما في أمر الله لايهادن على الباطل ، فلابد من إزالة معالم الوثنية حتى تتحرر العقول من تعظيمها، وهذا هو أهم أهداف الغـزو الإسلامي ، لأن المقصـود به تحرير الـعقول من هيـمنة خرافات الوثنية ، وحينما يتم حرق تلك الأصنام ثم لايحصل بحرقها ضرر على المسلمين يتبين لعامـة الناس الذين ضللهم كبراؤهم أن تلك الأصنام لاتضر ولاتنفع ، فتـتخلَّى عقولهم من سـيطرتها وسيطرة من يُروِّجـون لهـا ، لتكون بعـد ذلك هذه العـقـول أهلا للتـحلِّي بدين التوحيد الذي لايفرض سلطة دينية بين الله تعالى وعباده .

ولقد أحسن قتيبة صنعا حين تولى حرقها بنفسه لأن ذلك أبلغ في التنفير منها وتحرير العقول من سيطرتها .

فتح إقليمي الشاش وفرغانة :

وقد ذكر الإمام الطبـري خبر غزو قتيبـة بلاد الشاش وفرغانة سنة أربع وتسعين وأنه لما قطع النهـر فرض على أهل بخارى وكِشّ ونَسَف وخُوارَزم عـشرين ألـف مقاتـل ، قال : فـساروا معـه إلى السـغْد، فوُجِّهوا إلى الشاش ، وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى «خُجَنْدَة» فجمع له أهلها فلقوه فاقتتلوا مرارًا كل ذلك يكون الظفر للمسلمين.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢ - ٤٧٦ ، البداية ٩/ ٨٥ ، الكامل ٤/ ١٢٦ .

قال : ففزع الناس يوما فركبوا خيولهم ، فأوفى رجل على نشز ، فقال : تالله مارأيت كاليوم غرة ، لوكان هيج [يعني قتال] اليوم ونحن على ماأرى من الانتشار لكانت الفضيحة ، فقال له رجل إلى جنبه : كلا ، نحن كما قال عوف بن الخَرِع :

نَـؤُمُّ الـبلاد لحب اللـقا ولانتَّقي طـائـرا حـيث طارا
سَنِيحًا ولاجَارِيًا بارحـا على كل حال نلاقي اليسارا

وفي هذا دلالة على قوة معنوية أولئك الجنود حيث يقول هذا الذي تمثل بهذين البيتين : إنا على استعداد تام لأي عدو يلقانا لأن المبدأ الذي نجتمع عليه هو حب لقاء العدو .

قال : ثم أتى قتيبة كاشان مدينة فرغانة ، وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها، وانصرف قتيبة إلى مرو(١) .

وهكذا ذكر الإمام الطبري أخبار فتح الإقليمين المذكورين باقتضاب، ولكن يُفهم من ذلك أن النهاية كانت سيادة حكم المسلمين على تلك البلاد .

وقد تقدم معنا أن أهل فرغانة والشاش قد قدَّموا لنصرة أهل سمرقند خيار جيشهم من أبناء الملوك ووجوه الناس والأبطال ، وأن المسلمين كمنوا لهم في الطريق ليلا فأبادوا أكثرهم وأسروا بعضهم ، فكانت هذه الفاجعة كافية لإثارة الرعب في قلوب أهل تلك البلاد فأصبحت مقاومتهم بعد ذلك ضعيفة .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٤٨٣ - ٤٨٤ .

ثم ذكر الإمام الطبري فتح قتيبة بلاد « كاشغر » وهي تقع حاليًا في تركستان الشرقية التابعة للصين ، وذلك في سنة ست وتسعين.

وذكر أن قتيبة أرسل إلى شِعْب عصام من يُسهِّل له الطريق إلى كاشغر ، ثم ذكر أنه بعث كثير بن فلان إليها فَسَبَى منها سبيًا ، فختَّم أعناقهم مما أفاء الله تعالى على قتيبة [1] .

وهكذا أيضًا ذكر فتح هذا الإقليم باختصار ، وقد تجاوزه قتيبة متجهًا إلى الصين كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وبهذا يكون قتيبة قد أتم فتح أقاليم بلاد ماوراء النهر وأظلها حكم الإسلام قبل نهاية القرن الأول ، واستمر دخول أهلها في الإسلام ، حتى أصبحت بعد ذلك تكوِّن جزءًا مهما من بلاد المسلمين، وأنجبت علماء أفاضل كان لهم دور بارز في نشر الإسلام وترسيخ دعائمه وخدمة العلوم الشرعية ، ويأتي على رأس قائمة هؤلاء العلماء الإمام أبو عبد الله البخاري ، ثم يأتي الإمام الترمذي والنسفي والبيهقي، وغيرهم من العلماء الكبار .

وقد أصبحت هذه البلاد تُسمَّى فيما بعد تركستان الغربية وتركستان الشرقية ، وقد وقعت الأولى تحت الاحتلال الروسي عقودا من الزمن،وقسموها إلى خمس دول ،وهي أوزبكستان وطاجكستان، وتركمانستان وقرقيزيا ، وكازخستان .

أما تركستان الشرقية فإنها لاتزال تحت الاحتلال الصيني. وماتزال تركستان بشطريها تحتفظ بإسلامها مع ماطرأ عليها من بُعْد وانحراف .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠ .

خضوع مملكة الصين للمسلمين :

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم توغل شرقا حتى قَرُبَ من بلاد الصين وذلك في سنة ست وتسعين .

قال: فكتب إليه ملك الصين : أن ابعث إلينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم ،ونسائله عن دينكم ، فانتخب قتيبة من عسكره اثنى عشر رجلا - وقال بعضهم عشرة - من أفناء القبائل، لهم جَمَال وأَلْسُن وشعور وبأس ، بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه ، فكلَّمهم قتيبة وفاطنهم [1] فرأى عقولا وجمالا، وأمر لهم بعُدَّة حسنه من السلاح والمتاع الجيد، من الخز والوشي واللّيِّن من البياض والرقيق - من الثياب - والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهَّمة تُقَادُ معهم ، ودواب يركبونها .

قال : وكان هبيرة بن المُشَمْرج الكلابي مفوَّهًا بسيط اللسان، فقال: ياهبيرة كيف أنت صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب ، وقل ماشئت أقُلْه وآخذ به [2]، قال : سيروا على بركة الله وبالله التوفيق ، لاتضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أن لاأنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختِّم ملوكهم، وأَجْبي خراجهم .

قال : فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج ، فلما قدموا أرسل

---

(١) أي اختبر فطنتهم .

(٢) يعني قد كفيت المنطق الذي تقتضيه المواقف المختلفة ، وقل ماتريد من شئون الحرب والسياسة أبلغه عنك .

إليهم ملك الصين يدعوهم ، فدخلوا الحمام ، ثم خرجوا فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل، ثم مَسُّوا الغالية وتدخَّنوا ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا ، فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : رأينا قوما ماهم إلا نساء .

قال : فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوشْي وعمائم الخز والمطارف ، وغدوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا ، فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك .

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم ، فشدُّوا عليهم سلاحهم ولبسوا البَيْض والمَغافِر وتقلدوا السيوف واخذوا الرماح، وتنكَّبوا القِسيّ، وركبوا خيولهم ، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين ، فرأى أمثَال الجبال مقبلة ، فلما دنَوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا ، لِمَا دخل قلوبهم من خوفهم .

قال : فانصرفوا فركبوا خيولهم ، واختلجوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم، كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء قط .

فلما أمسى أرسل إليهم الملك : أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم رجلا ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي ، وإنه ليس أحد يمنعكم مني ، وأنتم في بلادي ، وإنما أنتم

بمنزلة البيضة في كفي ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم، قال : سل ، قال : لِمَ صنعتم ماصنعتم من الزِّي في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال : أما زيُّنا الأول فلباسنا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدونا ، فإذا هاجنا هَيْج وفزع كنا هكذا .

قال : ماأحسن مادبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له : يَنْصَرِفْ ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه ، قال له : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلَّف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولانخافه .

قال: فما الذي يُرضي صاحبك ؟ قال : إنه حلف أن لاينصرف حتى يطأ أرضكم ، ويُخَتِّم ملوككم ، ويُعْطَى الجزية ، قال: فإنا نخرجه من يمينه ، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختِّمهم ، ونبعث إليه بجزية يرضاها .

قال : فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب ، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به ، فقبل قتيبة الجزية ، وختَّم الغِلْمة وردهم ، ووطئ التراب (١) .

وهكذا أظهر أعضاء هذا الوفد عزة الإسلام أمام ملك الصين

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠ - ٥٠٣ ، الكامل ٤/ ١٣٦ .

وحاشيته ، واجتهدوا في الظهور أمامهم بالهيئات الثلاث التي حازت إعجاب الملك بعد أن عرف تفسيرها ، وإن كانت الهيئة الحربية هي التي أوقعت الرعب فيهم ، وهي التي كان الصحابة رضي الله عنهم يظهرون بها عند مقابلة الكفار .

وفي الحوار الذي دار بين ملك الصين وهبيرة نجد هبيرة موفقا في عرض قوة المسلمين ، وإظهار عزتهم ، حتى أحدث ذلك الخوف في قلب ملك الصين ، فتنازل عن تهديده للمسلمين ورضي بأن يحقق لهم جميع مايريدون في مقابل أن يتفادى القتال معهم وذلك حينما أشعره بأن قوة المسلمين ليست في هذا الجيش الذي حضر بلاده فقط، وإنما جيشهم ممتد من بلاده إلى بلاد الشام التي هي منابت الزيتون .

ولقد كان ملك الصين ووزراؤه أصحاب عقول رشيدة حيث اعتبروا بالدروس التي تلقاها من قبلهم ، فلم يقحموا دولتهم في صراع مع المسلمين ، وقد سبق ذكر اعتذار ملك الصين من إمداد ملك الفرس لما استنجد به ، وبين له أن المسلمين - بناء على الصفات التي نقلت عنهم - لايمكن أن يقف أمامهم أحد .

ومما يذكر في هذه المحاورة إشارة هبيرة إلى أن المسلمين لايخافون من الموت ، ولايمكن أن يخيفهم أحد بالقتل ، ولايصنع ذلك فيهم شيئًا ، لأنهم يؤمنون بالقدر ، ويعتقدون أن لكل إنسان أجلاً لايتجاوزه ، فإذا كتب الله تعالى انقضاء الأجل فإن أكرم أنواع الموت الشهادة في سبيل الله تعالى ، وهذه العقيدة العظيمة كانت وراء إقدام المسلمين على خوض الأهوال ومقارعة الأبطال، لأن الإقدام على

الخطر لايقدِّم الأجـل ، والإحجام عنه لايؤخـره عن موعـده المحدد، وإذا كان ملك الصين قد فهم هذا المعنى فإنه مما يـثير مخاوفه لأن هذا الاعتـقاد مرعب للكـفار ، حيث إنهم حـينما يقاتلون المـسلمين فإنما يقاتلون قـوما لايهابون الموت ، والذي يقـدم على قتال خصـمه وهو يحمل هذا الشعور لايمكن أن يقف أمامه أحد .

نبذة عن حياة قتيبة ونهايته :

يجدر بنا أن نذكر شيئًا من فضـائل قتيبة بن مسلم الباهلي وتاريخ حياة هذا القائد العظيم، فـهو الذي نقل الإسلام ورسخ دعائم الدولة الإسلامـية في بلاد ماوراء النهر التي تمـتد من بحر قزوين غـربا حتى حدود الصين شرقا .

هذا القائد كـان نبوغه مـبكرا حين كان في العراق، ولمَّا يتـجاوز الثلاثين من عمره ، وقد ظهر نبوغه حينما اعترض على الحجاج، وقد استشـار الناس في شبيب الخارجي الذي أعيـاه قتاله ، فلم يتكلم إلا قتـيبة ، فـقال للحـجاج : إنك لم تنصح لله ولا لأمـير المؤمنين في قتالهم ، فغضب الحجاج ، ولكنه كان في وضع يحتاج فيه إلى الناس لشدة هـجوم الخوارج فـقال له : وكـيف ذاك ؟ قال : تبـعث الرجل الشريف وتبعث معـه رعاعًا من الناس فينهزمون عنه ويستـحي فيقاتل حتى يقتل ، قال : فما الرأي ؟ قال : أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيـواسونك بأنفـسهم ، وعمل الحـجاج بمشـورته وخرج لهم فكانت هزيمتهم (١) .

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٢٧٣ .

ولقد أفاد الحجاج من هذه المشورة في قتال ابن الأشعث حيث خرج له بنفسه وقاد المعارك الأخيرة الحاسمة .

ومازال قتيبة محل إعجاب الحجاج حتى ولاه على بلاد « الرَّى» واستعان به في القضاء على فتنة ابن الأشعث ، ثم ولاه خراسان ، فانطلق منها لفتح بلاد ماوراء النهر ، واستغرق فتحها عشر سنوات من سنة ست وثمانين حتى سنة ست وتسعين .

هذا وإن كان قتيبة رجلا ذا مواهب عالية من الشجاعة والمقدرة الإدارية والحربية فإنه يؤخذ عليه إهماله مبدأ الشورى في كثير من أموره، ولئن كان قد سلم من كثير من المشكلات الناجمة عن القرار المنفرد لتوفيق الله له أوَّلاً ثم لما يتمتع به من طاقة فكرية عالية وخبرة حربية واسعة فإن إهمال الشورى قد جر عليه مشكلة قضت على حياته وحياة إخوانه ، وذلك حينما بادر من غير مشورة فخلع الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ثم قام خطيبًا فعاب جميع القبائل الذين كانوا معه أشد العيب ، فكان نتيجة ذلك أن غضبت القبائل فولَّوا عليهم وكيع بن أبي أسود التميمي ، وثاروا على قتيبة فقتلوا إخوانه ثم قتلوه وكانت نهاية مؤلمة لهذا البطل الفاتح [١] .

* * *

(١) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري ٦/٥٠٦ - ٥١٦ ، الكامل / ٤/١٣٨، البداية والنهاية ٩/ ١٧٤ .

٣ - فتوحات يزيد بن المهلب -

لما ولي الخلافة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ولي على خراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وذلك في عام سبعة وتسعين[١].

فتح جرجان :

قال الإمام ابن جرير الطبري : وفي هذه السنة - يعني سنة ثمان وتسعين - غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان .

ثم ذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك لما ولّى يزيد بن المهلب على خراسان كان أهم شيء عنده أن يفتح جرجان وطبرستان [٢] لأن هذين الأقليمين كانا على طريق خراسان ، وقد تحول الطريق من فارس وكرمان، لعدم وجود الأمان للمسلمين في جرجان وطبرستان .

وكان يحكم جرجان عدد من الأمراء منهم صول التركي وفيروز ابن قول ، وكان بينهما نزاع وقتال، فذهب فيروز إلى يزيد بن المهلب يستنصر به فأغار صول على إمارته وأخذها ، فلما قدم فيروز على يزيد بن المهلب قال له يزيد : ماأقدمك ؟ قال: خفت صولاً فهربت منه، قال له يزيد : هل من حيلة لقتاله ؟ قال: نعم ، شيء واحد إن ظفرت به قتلته أو استسلم لك، قال: ماهو ؟ قال إن خرج من

---

(١) تاريخ الطبري ٦ / ٥٢٣ .

(٢) موقع الإقليمين في شمال إيران واسمهما الآن مازندران - معجم أماكن الفتوح -

جرجان حتى ينزل البحيرة [1] ثم أتيته فحاصرته بها ظفرت به، فاكتب إلى الإصبهبذ [2] كتابا تسأله فيه أن يحتال على « صول » حتى يقيم بجرجان ، واجعل له على ذلك جُعلاً ومَنِّه ، فإنه يبعث بكتابك إلى صولٍ يتقرب به إليه لأنه يعظمه ، فيتحولُ عن جرجان فينزلُ البحيرة.

فكتب يزيد بن المهلب إلى صاحب طبرستان : إني أريد أن أغزو «صولاً » وهو بجرجان ، فخفت إن بلغه أني أريد ذلك أن يتحول إلى البحيرة فينزلها ، فإن تحول إليها لم أقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك ، فإن حبسته العام بجرجان فلم يأت البحيرة حملت إليك خمسين ألف مثقال ، فاحْتَل له حيلة تحبسه بجرجان ، فإنه إن أقام بها ظفرت به، فلما رأى الأصبهبذ الكتاب أراد أن يتقرب إلى «صول» فبعث بالكتاب إليه، فلما أتاه الكتاب أمر بالرحيل إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصن بها .

وبلغ يزيد أنه قد سار من جرجان إلى البحيرة، فاعتزم على السير إلى جرجان ، فخرج في ثلاثين ألفا ، وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها بدون مقاومة تذكر، ثم سار إلى البحيرة فحاصرها، فكان يخرج إليه صولٌ في الأيام القليلة فيقاتله ثم يرجعُ إلى حصنه، فمكث الترك محصورين ستة أشهر ، حتى شربوا الماء المالح فأصيبوا بداء السُّؤَاد ، فوقع فيهم الموت، وأرسل صول في ذلك يطلب الصلح،

---

(١) هي جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ وهما من جرجان مما يلي خوارزم.

(٢) هو حاكم طبرستان .

فقال يزيد بن المهلب : لا ، إلا أن ينزل على حكمي، فأبى، فأرسل إليه : إني أصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهل بيتي وخاصتي، على أن تؤمنني فتنزل البحيرة ، فأجابه يزيد ، فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب ، فاستولى المسلمون على الجزيرة ، وقتل يزيد بعض من فيها من المقاتلة (١) .

فهذا الخبر فيه مواقف جهادية عالية ، منها :

١ - اهتمام يزيد بن المهلب بغزو بلاد جرجان وطبرستان ، وكانت هذه البلاد لوعورة أرضها وصعوبة مسالكها تصدُّ الغزاة من المسلمين ، وقد ذكر الإمام الطبري أن مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني غزا جرجان في عهد معاوية رضي الله عنه في عشرة آلاف مجاهد فأصيب هو وجنده بالرَّويان ، وهي متاخمة لطبرستان ، فهلكوا في واد من أوديتها ، أخذ عليهم العدو بمضايقه فقتلوا جميعا، فهو يسمى وادي مصقلة، ولشهرة خبره كان يضرب به المثل : « حتى يرجع مصقلة من طبرستان » (٢) . فكان لمِاَ أصاب المسلمين في تلك الغزوة ولغيرها أثر على قادة المسلمين وجنودهم .

وقد جرى التوسع في الفتوحات شرقا حتى بلغ المسلمون في فتوحاتهم بلاد الصين ، بينما كانت بلاد جرجان وطبرستان دون خراسان، ومع ذلك تركها المسلمون، فكان اهتمام يزيد بن المهلب بغزو هذه البلاد أمراً يذكر له .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٥ - ٥٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٥ - ٥٣٦ .

وقد جاء في رواية للطبري أن سليمان بن عبد الملك كان كلما افتتح قتيبة فتحًا قال ليزيد بن المهلب : أمَا ترى مايصنع الله على يدى قتيبة ؟ فيقول ابن المهلب : مافعلت جرجان التي حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدت قومس وأبهرشهر ؟! (١) وهذا يبين بأن ابن المهلب قد اهتم بفتح هذه البلاد قبل أن يكون أميرًا على خراسان .

٢ - وفي هذا الخبر نماذج من التدابير الحربية الجيدة، فمن ذلك ماجرى من يزيد بن المهلب في كتابه إلى «صول» حاكم جرجان، حيث أخرجه بمكيدة ناجحة من مُتَمَنَّع بلاده بجرجان إلى الجزيرة التي لايستطيع أن يقاوم فيها طويلا، فاستطاع يزيد أن يأخذ جرجان بدون مقاومة تذكر، لأن أغلب جيوشها تحولت إلى الجزيرة التي تحصن بها أميرها « صول » ، ثم حاصرهم فيها حتى استسلم أميرهم .

ومن المواقف المذكورة في هذه الغزوة ماذكر الإمام أبو جعفر الطبري من خبر أبي محمد الثقفي قال: أصاب يزيد بن المهلب تاجًا بجرجان فيه جوهر ، فقال: أترون أحدًا يزهد في هذا التاج ؟ قالوا: لا ، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال: خذ هذا التاج فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه ، قال: عزمت عليك ، فأخذه ، وخرج فأمر يزيد رجلا ينظر مايصنع به ، فلقى سائلا فدفعه إليه، فأخذ الرجُل السائلَ فأتى به يزيد وأخبره الخبر، فأخذ يزيد التاج وعوَّض السائل مالا كثيرًا (٢) .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩ .

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩ .

وهكذا كانت شـهرة هـذا الإمام الزاهـد العابـد في الزهـد والعفة والورع قـد وصلت إلى القـادة والأمراء ، فكـان يزيد بن المهلب يعلم أن محـمد بن واسع سـيزهد في ذلك التـاج، فأراد أن يظهـر للناس نموذجًا من البشـر قد سمت نفوسهم وعلت طموحـاتهم ، فتجاوزت مـايتنافس الناس عليـه من متـاع الدنيـا ، وحلَّقت إلى نعيم الآخـرة الخالد، فأصبح الجوهر النفيس عندهم يعادل أدنى عملة يمكن أن تقدم لسائل بائس .

لقد كـان يزيد بن المهلب وأمثـاله من العقـلاء يدركون المسـتوى الرفيع الذي بلغه محمد بن واسع وأمثاله ، ولكنهم لايستطيعون بلوغ ذلك المسـتوى ، لأن نفوسـهم لم تتجـرد بعْدُ من حـب المال والجاه، ولأنهم لم تتمثل في أفكارهم عظمة الجنة ودرجاتها المتفاوتة في السمو والنعيم ، ولكنَّ وضع يزيد مع ذلك أفضل بكثير من الذين لم يَدُر في مخيلتهم أن أحدًا من الناس يزهد في متاع الدنيا .

فتح طبرستان :

ذكـر الإمام أبو جـعفـر محـمد بن جـرير الطبري عن عـدد من الشـيوخ أن يزيد بن المهلب لما صـالح حاكم جـرجان رغب في فـتح طبـرسـتـان ، فلما عـزم على المسيـر إليهـا ولَّى عبـد الله بن المعـمَّر اليشكري على بيـاسان ودهسـتـان، وخلَّف معه أربعـة آلاف، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلي طبرستان ، واستعمل على أندرستان أسد بن عمرو - أو ابن عبد الله بن الرَّبعـة - وهي مما يلي طبرستان ، وخلَّفه في أربعـة آلاف ، ودخل يزيد طبـرسـتـان ، فـأرسل إليه حـاكـمهـا

الأصبهبـذ يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستـان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها وأقام معسكرًا هناك .

ووجه يزيد ابنه أبا عـيينة في جيش لقـتال الأعداء، وكـان حاكم طبرستان قـد استنجد بأهل جيلان وأهل الديلم، فـالتقوا مع المسلمين في سفح جبل فانـهزم المشركون وتبعهم المسلمون حـتى انتهوا إلى فم الشعب فدخله المسلمون ، فرماهم المشركون من فوق الجبل فانهزم أبو عيـينة والمسلمون ورجعـوا إلى معسكر يزيد، ولم يتـبعهم المشـركون خوفا من هجوم جيش المسلمين عليهم .

وكتب الإصـبهبذ حـاكم طبرستان إلى المرزبان ابن عم فـيروز بن قـول وهو بأقـصى جـرجان مما يلـي البيـاسـان : إنا قـد قـتلنا يزيد وأصحابه فاقـتل من في البياسان من العرب، فخـرج بجيشه إلى أهل البياسان والمسلمون آمنون في منازلهم ، فقـتلوا المسلمين جميعًا وكانوا أربعة آلاف بقيادة عبد الله بن المعمَّر .

وبلغ يزيد والمسـلمين ذلك فـهـالهم وأعظمـوا ذلك وبلغـهم أن المرزبان كتب إلى الإصبهبذ ليسد المنافذ على المسلمين ، وهذا يعني أن المسلمين قد وقعوا بين جيشين للأعداء، ففزع يزيد إلى حيان النبطي[١] وقال له : لا يمنعك ماكان مني إليك من نصـيحة المسلمين، قد جاءنا عن جرجان ماجاءنا ، وقد أخذ هذا بالطرق فاعمل في الصلح، قال: نعم ، فأتى حيان الإصبهبذ فقال: أنا رجل منكم ، وإن كان الدين قد

(١) هو من العجم وقد كان دخل في الإسلام وحسن إسلامه وتولى بعض الأعمال، وقد كان يزيد غرمه مائتي ألف بسبب إهانة وقعت منه لمخلد بن يزيد .

فرق بيني وبينكم فإني لكم ناصح، وأنت أحب إلي من يزيد ، وقد بعث يستمد ، وأمداده قريبة، وإنما أصابوا منه طرفا، ولست آمن أن يأتيك مالاتقوم له ، فأرح نفسك منه وصالحه، فإنك إن صالحته صيَّر حدَّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا، فصالَحَه على مبلغ كبير من المال ، وقد أرسل إليهم يزيد ذلك المال الذي صالحهم عليه حيَّان النبطي [1] .

وهذا الذي قام به يزيد بن المهلب من مصالحة حاكم طبرستان يعتبر من التدابير الحربية الناجحة، وهذا الصلح وإن كان ظاهره ذلة للمسلمين ، حيث سيدفعون لذلك الحاكم مبلغا كبيرًا من المال إلا أنه في الحقيقة نوع من الخداع الحربي، حيث أراد يزيد أن يتقي بذلك شر أحد الجيشين ليتفرغ للجيش الآخر، فإذا تم القضاء عليه رجع للجيش الذي صالحه في الوقت المناسب .

فتح جرجان مرة أخرى :

وقد ذكر الإمام الطبري فيما يرويه عن شيوخه أن يزيد بن المهلب لما صالح أهل طبرستان قصد لجرجان ، فلما بلغ المرزبان حاكم جرجان أن يزيد قد صالح حاكم طبرستان جمع أصحابه وأتى مدينة « وجاه » فتحصن فيها ، وأقبل يزيد حتى نزل عليها وحولها أشجار كثيفة ولايعرف لها إلا طريق واحد، فأقام محاصرًا لها سبعة أشهر لايقدر منهم على شيء ، وكانوا يخرجون في بعض الأيام فيقاتلونه ويرجعون إلى حصنهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩ - ٥٤١ باختصار .

وفي يوم من الأيام خرج رجل من جيش يزيد من قبيلة طيء يتصيد[1] ، فأبصر وَعِلاً يرقى في الجبل فاتَّبعه ، وقال لمن معه : قفوا مكانكم ، وصعد في الجبل يقتص أثر الوعل، فما شعر بشيء حتى أطل على عسكر الأعداء، فرجع يريد أصحابه فخاف أن لايهتدي لتلك الثغرة إذا أراد العودة فجعل يُقطِّع قباءه ويعقد على الشجر علامات ، حتى وصل إلى أصحابه، ثم رجع إلى العسكر فأتى إلى عامر بن أينم الواشجي صاحب شرطة يزيد ، فرفع ذلك إلى ابني زُحَر بن قيس فأدخلاه على يزيد ، فقال له : أتريد أن تدخل «وجاه» بغير قتال ؟ قال : نعم ، فأعلَمَه بذلك الطريق الجبلي المطل على الأعداء ، فندب الناس فانتدب له ألف وأربعمائة ، فقال ذلك الرجل: الطريق لايحمل هذه الجماعة لكثرة الأشجار فيه، فاختار يزيد منهم ثلاثمائة فوجههم معه وأمَّر عليهم أحد قادته وقال له: إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغلبنَّ على الموت، وإياك أن أراك عندي منهزما، وقال للرجل الذي أعلمه بذلك : متى تصل إليهم ؟ قال: غداً عند العصر فيما بين الصلاتين ، قال: امضوا على بركة الله فإني سأجهد على مناهضتهم غداً عند صلاة الظهر .

فساروا ، فلما قارب انتصاف النهار من غدٍ أمر يزيد الناس أن يُشعلوا النار في حطب كان قد جمعه في حصاره إياهم، فصيَّره آكامًا، فأضرموه نارًا ، فلم تَزُل الشمس حتى صار حول عسكره أمثالُ

(١) وقيل إنه الهياج بن عبد الرحمن الأزدي من أهل طوس .

الجبال من النيران ، ونظر العدو إلى النار فهالهم مارأوا من كثرتها فخرجوا إليهم ، وأمر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلَّوا وجمعوا بين الصلاتين ، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا .

وسار أصحاب تلك السرية بقية يومهم والغد ، فهجموا على عسكر الترك قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد والمسلمون يقاتلونهم من الوجه الآخر، فما شعر الأعداء إلا بالتكبير من ورائهم ففروا جميعًا إلى حصنهم، وركبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم ، ثم رجع إلى خراسان ، وأمَّر على جرجان جهم بن زحر الجعفي [1].

وهكذا نجح المسلمون في فتح إقليم جرجان ولقد كان من مظاهر توفيق الله تعالى ونصره لذلك الجيش أن ألهم ذلك الرجل الصياد إلى صعود ذلك الجبل الشاهق الوعر المكتظ بالأشجار ليطل على الأعداء فيكتشف عورةً لهم ، ثم يكون الفتح ونصر المسلمين من ذلك الطريق، ولقد كان ذلك الصياد عالي الهمة حينما حمل على عاتقه مسئولية كشف ذلك الطريق الذي كان به فرج المسلمين ، كما كان يزيد بن المهلب قائدا بارعًا حينما اغتنم تلك الفرصة فخطط للقضاء على الأعداء بإرباكهم من خلفهم والهجوم عليهم من أمامهم في وقت واحد .

وإن مما ينبغي الإشادة به موقف تلك السرية التي لايتجاوز عدد أفرادها ثلاثمائة ، حيث غامر أفرادها بالسير في تلك المجاهل ، ثم

---

(١) تاريخ الطبري ٦/٥٤١ - ٥٤٣ .

بالهجوم على جـيش قوي كثيف من الخلف، إذ أن هناك احـتمال أن ينعطف عليهم ذلك الجيش فيبيــدهم ، فهذا مثل من شجاعة المسلمين العالية ومسارعتهم إلى البذل والتضحية .

* * *

٤ - جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية

جهاد المسيب بن بشر الرياحي :

ذكر الإمام الطبري أن خاقان ملك الترك جمعهم ووجّهّهم إلى السُّغد ، فكان على الترك كورصول، وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهليّ.

قال : وقال بعضهم : أراد عظيمٌ من عظماء الدّهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة ، وكانت في ذلك القصر ، فأرسل إليها يخطبها. فأبت، فاستجاش ورجا أن يسبُوا مَنْ في ذلك القصر ، فيأخذ المرأة، فأقبل كورصول حتى حصر أهل القصر ، وفيه مائة أهل بيت بذراريّهم ، وعلى سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف وخافوا أن يبطئ عنهم المدد ، فصالحوا الترك على أربعين ألفًا ، و أعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة ، وندب عثمان بن عبد الله الناس ، فانتدب المسيّب ابن بشر الرياحيّ وانتدب معه أربعة آلاف من جميع القبائل ، فقال شعبة بن ظهير : لو كان ها هنا خيول خُراسان ماوصلوا إلى غايتهم.

ثم ذكر بعض اسماء من انتدب للقتال من الأبطال إلى أن قال: فقال المسيَّب بن بشر لما عسكروا : إنكم تقدمون على حَلْبة الترك، حلْبة خاقان وغيرهم ، والعوَض إن صبرتم الجنة ، والعقاب النار إن فررتم ، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم .

فانصرف عنه ألف وثلثمائة ، وسار في الباقين ، فلما سار فرسخًا قال للناس مثل مقالته الأولى ، فاعتزل ألف ، ثم سار فرسخًا آخر فقال لهم مثل ذلك ، فاعتزل ألف . ثم سار - وكان دليلهم

الأشهب بن عبيد الحنظليّ - حتى إذا كان على فرسخين من القوم نزل فأتاهم ترك خاقان ملك قِيّ فقال : إنه لم يبقَ هاهنا دهْقان إلا وقد بايع الترك غيري ، وأنا في ثلثمائة مقاتل فهم معك ، وعندي الخَبر، قد كانوا صالحوهم على أربعين ألفًا ، فأعطوهم سبعة عشر رجلا، ليكونوا رَهْنًا في أيديهم حتى يأخذوا صلحَهم ، فلما بلغهم مسيركم إليهم قتل الترك مَنْ كان في أيديهم من الرهائن .

قال : وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهليّ فنجا لم يقتَل ، والأشهب بن عبيد الله الحنظليّ ، وميعادهم أن يقاتلوهم غدًا أو يفتحوا القَصْر ، فبعث المسيّب رجلين : رجلا من العرب ورجلاً من العجم من ليلته على خيولهم ، وقال لهم : إذا قرُبتم فشُدُّوا دوابَّكم بالشَّجَر ، واعلموا علم القوم . فأقبلا في ليلة مظلمة ، وقد أجْرَت الترك الماء في نواحي القصر ، فليس يصل إليه أحدٌ ، ودنوا من القصر ، فصاح بهما الربيئة ، فقالا : لاتصحْ وادعُ لنا عبد الملك بن دثار ، فدعاه فقالا له : أرسلنا المسيّب ، وقد أتاكم الغياث ، قال: أين هو ؟ قال : على فرسخين ، فهل عندكم امتناع ليلتك وغدًا؟ فقال: قد أجمعنا على تسليم نسائنا وتقديمهم للموت أمامنا ، حتى نموت جميعًا غدًا . فرجعا إلى المسيَّب ، فأخبراه فقال المسيب للذين معه : إني سائر إلى هذا العدو ، فمن أحب أن يذهب فليذهب ، فلم يفارقه أحدٌ ، وبايعوه على الموت .

فسار وقد زاد الماء الذي أجروه حول المدينة تحصينًا ، فلما كان بينه وبينهم نصف فرسخ نزل ، فأجمع على بياتهم ، فلما أمسى أمر

الناس فشدّوا على خيولهم ، وركب فحثَّهم على الصبر ، ورغَّبهم فيما يصير إليه أهل الاحتساب والصَّبْر ، ومالهم في الدنيا من الشرف والغنيمة إن ظفروا ، وقال لهم : اكعَموا دوابَّكم[1] وقُودوها ، فإذا دنوتم من القوم فاركبوها ، وشدّوا شدّةً صادقة وكبّروا ، وليكن شعاركم : يامحمد[2] ، ولاتتبعوا مُوليًّا ، وعليكم بالدوابّ فاعقروها ، فإنّ الدوابّ إذا عُقرت كانت أشدّ عليهم منكم ، والقليل الصابر خيرٌ من الكثير الفشِل ، وليست بكم قلّة ، فإنّ سبعمائة سيف لايُضرب بها في عسكر إلا أوهنوه وإن كثر أهله .

قال : وعبّأهم وجعل على الميمنة كثير بن الدَّبوسيّ ، وعلى الميسرة رجلا من ربيعة يقال له ثابت قُطْنة ، وساروا حتى إذا كانوا منهم على غلوتين كبروا وذلك في السحَر ، وثار الترك ، وخالط المسلمون العسكَر ، فعقروا الدوابّ ، وصابرهم الترك ، فجال المسلمون وانهزموا حتى صاروا إلى المسيَّب ، وتبعهم الترك وضربوا عَجُز دابة المسيّب فترجّل رجال من المسلمين ، فيهم البَختريّ أبو عبدالله المرائيّ ، ومحمد بن قيس الغَنَويّ - ويقال : محمد بن قيس العنبريّ - وزياد الأصبهانيّ ، ومعاوية بن الحجاج ، وثابت قطنة . فقاتل البَختريّ فقطعت يمينه ، فأخذ السيف بشماله فقطعت ، فجعل يذبٌّ بيديه حتى استشهد . واستشهد أيضًا محمد بن قيس العنبريّ أو الغَنَوي وشبيب بن الحجاج الطائي .

---

(١) أي اربطوا أفواهها ، وذلك أقوى لها على تحمل الشدة والعطش .

(٢) هذا ليس من الاستغاثة لأن الاستغاثة بغير الله تعالى لم تكن معروفة عند التابعين لوضوح كونها من الشرك ، وإنما هو مجرد شعار يتعارفون به كما جاء في الخبر .

قـال : ثم انهـزم المشركـون ، وضـرب ثابت قُطْنة عظيـمًـا من عظمائهم ، فقتله ، ونادى منادي المسيّب ، لاتتبعوهم ، فإنهم لايدرون من الرّعب ، اتبعـتموهم أم لا ! و اقصدوا الـقَصْر ، ولاتحملوا شـيئًا من المتاع إلا المال ولاتحملوا من يقدر على المشي .

وقال المسيّب : مَنْ حمل امـرأة أو صبيًا أو ضعيفًا حِـسْبَةً فأجرُه على الله ، ومَنْ أبى فله أربعون درهمًا ، و إن كان في القصر أحدٌ من أهل عَهْدكم فاحمـلوه . قال : فقصدوا جميعًا القَـصْر ، فحملوا منْ كان فـيه ، وانتـهى رجلٌ من بني فُـقَيم إلى امـرأة ، فقالت : أغـثْني أغاثك الله ! فـوقف وقال : دونك وعجز الفرس ، فـوثبت فإذا هي على عجُز الفـرس ، فإذا هي أفرسُ من رجل ، فتناول الفقـيمي بيد ابنها ، غلامًا صغيراً ، فوضعه بين يديه ، وأتَوْا ترك خاقان ، فأنزلهم قصره وأتاهم بطعام . وقال : الحقوا بسمرقند ، لايرجعوا في آثاركم . فخـرجوا نحو سمـرقند ، فقال لهم : هل بقي أحـد ؟ قالوا : هلال الحـريريّ ، قـال : لا أسلمه ، فـأتاه وبه بضع وثلاثـون جراحـة ، فاحتمله ، فبرأ ، ثم أصيب يوم الشعب مع الجنيد .

قال : فرجع الترك من الغـد ، فلم يروا في القصر أحدًا ، ورأوا قتلاهم ، فقالوا : لم يكن الّذين جاءوا من الإنس ، فقال ثابت قطنة :

فَدَتْ نفسي فوارسَ مِـن تميم ... غَدَاةَ الـرَّوع فـي ضَـنْكِ المقام

فدت نفسِي فـوارسَ أكنفوني ... على الأعـداء في رَهَـج القتَام

بقَصْـرِ الباهليِّ وقـد رأونــي ... أحامي حيث ضَنَّ به المحامِي

بسيفي بعد حَطْمِ الرُّمحِ قُدْمًا ... أذُودُهُـمُ بذي شُطَبٍ جُسَام

أكُرُّ عليهم اليَحْمُومَ كَرًّا ... ككرِّ الشَّرْبِ آنيَةَ المُدامِ

أكُرُّ به لدَى الغمراتِ حتى ... تَجَلَّتْ لا يَضيقُ بها مَقامِي

فلوْلا اللهُ ليس له شَرِيكٌ ... وضَرْبي قَونَسَ الملكِ الهمامِ

إذًا لَسعَتْ نساءُ بني دِثَارٍ ... أمامَ الترك بادِيةَ الخِدَامِ !

فمَنْ مِثْلُ المسيَّبِ في تميمٍ ... أَبى بِشْرٍ كَقادِمةِ الحمامِ(١)

ففي هذا الخبر مثل جليل لما يصنعه الصبر والثبات وسمو الأهداف، فهؤلاء الذين لم يتجاوزوا سبعمائة قد انتصروا على جيش كبير يبلغ أضعافهم، وليس كل السبعمائة ثبتوا، بل فرَّ أكثرهم لضراوة القتال وهول الصدام، ولم يثبت مع قائدهم المسيب بن بشر الرياحي إلا القليل، وبهؤلاء الذين ثبتوا حُسمت المعركة وتنزَّل نصر الله تعالى.

إن هؤلاء الأبطال الأشاوس أشبه شيء بالصخور الصلبة التي تتحطم أمام شموخها وعليائها أمواج الطوفان الهادر.. إنه طوفان مدمِّر يهدم البيوت ويقتلع الأشجار، ويغير معالم الأرض، ولكنه يتفرق ويتشتت أمام صلابة الصخور ورسوخها.

لقد كان المسيب بن بشر رجلا عظيما حينما استصفى أصحابه ومحصهم فلم يقبل أن يتبعه إلا عُشَّاق الموت وطلاب الآخرة، لأن هؤلاء الأفذاذ هم الذين تتبدل بهم الموازين، وتتقرر بهم مصائر الأمم.

ونزل نصر الله تعالى على هذه الفئة القليلة الثابتة، وانقذوا من في ذلك القصر من المسلمين المحصورين، وأصيب الأعداء بالذهول

---

(١) تاريخ الطبري٦/٦٠٨ - ٦١١، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠.

والحيرة مما حدث ، لأنه مما يشبه خوارق العادات ، وكذَّبوا أعينهم التي صوَّرت لهم أولئك الأبطال بأنهم من البشر ، وغلَّبوا ماتخيلته عقولهم الحائرة من أن الذين لقوهم كانوا من الجن .

جهاد الجُنَيد بن عبد الرحمن المُرِّي :

روى الإمام الطبري عن شيوخه من خبر غزو الجُنَيد بن عبدالرحمن المُرِّي أمير خراسان وبلادَ ماوراء النهر : أنه خرج غازيا في سنة اثنتي عشرة ومائة يريد طخارستان فنزل على نهر بَلْخ ، ووجَّه عُمارة بن حُرَيم إلى طخارستان في ثمانية عشر ألفًا وإبراهيم بن بسَّام الليثي في عشرة آلاف في وجه آخر ، وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سَوْرة بن الحرِّ أحدُ بني أبان بن دارم ، فكتب سورة إلى الجنيد: إن خاقان جاش بالترك فخرجتُ إليهم فما قدرت أن أمنع حائط سمرقند ، فالغوث .

فأمر الجنيد الناس بالعبور [1] فقام إليه المجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي وابن بسطام الأزدي وابن صبح الخَرَقي فقالوا : إن الترك ليسوا كغيرهم لايَلْقَونك صفّا ولازحفا [2] وقد فرَّقت جندك ، فمُسلِم بن عبدالرحمن النيروز والبختريّ بهراة ، ولم يحضرك أهل الطالَقان، وعمارة بن حُرَيم غائب [3] وقال له المجشَّر : إن صاحب خراسان لايعبر النهر في أقل من خمسين ألفا [4] ، فاكتب إلى عمارة فليأتك

(١) يعني بعبور نهر جيجون الذي يفصل خراسان عن بلاد ماوراء النهر .

(٢) يعني أنهم يقومون بالغارات المفاجئة .

(٣) يعني بطخارستان .

(٤) يعني من كان أميرا على خراسان قبل الجنيد لأن الجنيد حديثُ عهد بالولاية .

وأمهل ولاتعجل ، قال: فكيف بسَوْرة ومن معه من المسلمين ! لو لم أكن إلا في بني مرة [1] أو من طلع معي من الشام لعبرت ، وقال :

أليس أحقَّ الناس أن يشهد الوغى

وأن يَقْتل الأبطال ضخم على ضخم

وقال :

مـاعلَّتي مـاعلَّتي مـا علَّتي إنْ لـم أقاتلهم فجُزُّوا لِمَّتي

قال : وعبر فنزل « كِسَّ » وقد بعث الأشهب بن عبيد الحنظلي ليعلم علم القوم ، فرجع إليه وقال : قد أتوك فتأهب إلى المسير .

وهنا نقف قليلا لنتأمل هذا المشهد الذي برزت فيه شجاعة الشجعان في مقابل رأي أهل الرأي ، فالمتأمل يرى في كلام الأمير الجنيد وعزمه وتصميمه على مواجهة جيش الترك مواقف عالية في الشجاعة والشهامة والرحمة بإخوانه المسلمين المحاصرين بسمرقند والعزم الأكيد على حمايتهم وإنقاذهم مهما كلفه ذلك وجيشه من متاعب .

لكنَّ رأي أهل الرأي له وزنه الكبير في تقدير ذلك الموقف لأن المُجَشَّر السُّلَمي وأصحابه أهل خبرة طويلة بقتال الترك بينما الجنيد حديث عهد بذلك .

ومع كون الجُنيد لم يقبل برأيهم فإنهم قد أطاعوه وعبروا النهر معه ولم يخذلوه مع غلبة ظنهم بأن الترك سيقتطعونه وجيشه وستكون

---

(1) يعني أفراد قبيلته .

عليه هزيمة ونكبة كبيرة ، وهذا موقف يُذكر لهم في طاعة القائد .

قال : وبلـغ الترك [١] فعوَّروا الآبار [٢] التي في طـريق «كِسَّ» ومافيها من الرَّكايا [٣] ، فقال الجنيـد : أيُّ الطريقين إلى « سمرقند» أمثل؟ قالوا: طريق المحترقة ، فقال المجَشَّر بن مزاحم السُّلمي : القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار ، إن طريق المحترقة فيه الشجر والحشيش ولم يُزرع منذ سنين فقـد تراكم بعضه على بعض ، فإن لقـيتَ خاقان أحرق ذلك كله فقـتَلَنا بالنار والدخان ، ولكن خذ طريق العقبـة فهو بيننا وبينهم سواء .

فأخذ الجنيد طريق العقبة . . إلى أن قال: ومضى بالناس حتى دخل الشِّعب وبينه وبين مدينة سمرقند أربعةفراسخ،فصبَّحه خاقان في جمع عظيم،وزحف إليه أهل السُّغد والشاش وفرغانة وطائفة من الترك .

قال : فحمل خـاقان على المقدمة وعليها عثـمان بن عبد الله بن الشِّخِّيـر ، فرجعوا إلى العـسكر والترك تتبعـهم ، وجاؤوهم من كل وجه . . إلـى أن ذكر أن العدو قـصد للمـيمنة وفـيهـا تميم والأزد في موضع واسع فيه مجال للخيل .

قـال : وصبـر الناس يقـاتلون حتى أعَـيـواْ ، فكانت السيـوف لاتُحيك ولاتقطع شيئًا ، فقطع عـبيدهم الخشب يقاتلون به ،حتى ملَّ الفريقان ، فكانت المعانقة فتحاجزوا .

---

(١) أي بلغهم عبور المسلمين إليهم النهر .

(٢) أي دفنوها حتى لايستفيد منها المسلمون .

(٣) أي منابع الماء .

وذكر أنه استشهد في ذلك اليوم مئات من المسلمين ، وذكر أسماء عدد من أبطالهم [1] .

وهكذا انتهت هذه المعركة الهائلة التي قابل فيها المسلمون أضعافهم من الكفار بالتحاجز بين الطرفين ، وهذا يعني عدم انتصار أيٍّ من الفريقين على الآخر ، وهذا مثال على شجاعة المسلمين وثباتهم وصبرهم .

وماجاء في الرواية من قول الراوي « فكانت السيوف لاتحيك ولاتقطع شيئًا » دليل على الجهد الكبير الذي بذله المسلمون في القتال، حيث كلَّت السيوف ودثرت من كثرة الضرب بها .

إن من أبرز ماخلَّده المسلمون من عظمة في هذه المعركة غير المتكافئة أنه لم يُذكر أن الأعداء أسروا أحدًا من المسلمين ولاأن أحدًا منهم فَرَّ من المعركة ، وهذا الثبات العظيم هو الذي أذهل الأعداء فقرروا إنهاء المعركة مع ماكانوا يتوقعونه في البداية من المقدرة على سحق المسلمين وإبادتهم ، لقلتهم الظاهرة أمام كثرة أعدائهم .

ونظرًا لأن هذه المعركة تمت في أحد شعاب تلك المنطقة فقد اشتهرت بعد ذلك بيوم الشِّعب .

ومن المواقف التي ينبغي الإشارة بها في هذه المعركة ماذكره الإمام الطبري في سياق روايته من مواقف بعض الشهداء ، ومن ذلك ماذكره عن يزيد بن المفضَّل الحُدَّاني أنه حمل يوم الشِّعب على مائة بعير سويقا للمسلمين ، فجعل يسأل عن الناس ، ولايسأل عن أحد إلا

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧١ - ٧٤ .

قيل له : قد قُتل ، فتقدم وهو يقول: لاإله إلا الله ، فقاتل حتى قتل .

وذكر أنه قال لأمه بعد عودته من الحج : ادْعي الله أن يرزقني الشهادة .

وممن ذكر الطبري محمد بن عبد الله بن حوذان : قال عنه: فحمل سبع مرات يَقتل في كل مرة رجلا . ثم رجع إلى موقفه فهابه من كان في ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو : يقول لك الملك : لاتُقبِل وتحوَّل إلينا فنرفض صنمنا الذي نعبده ونعبدك ، فقال محمد: أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده فقاتل واستشهد (١).

وهكذا كان غَنَاء هذا البطل المجاهد عن كتيبة من المقاتلين لفرط شجاعته وإقدامه ، فلهذا كان الأعداء الذين هم بناحيته يهابون الإقدام على تلك الناحية وكأنهم يجابهون - بشخص هذا المجاهد - كتيبة كاملة ، ولقد ناداه الأعداء بذلك العرض الكبير لينحاز إليهم حتى يفقد المسلمون به الرجل القوي الشجاع الذي حمى ناحيته من الأعداء، ولكنه أجابهم بما يملؤ قلوبهم حسرة ، وذلك حينما بين لهم الهدف العالي الذي يقاتل من أجله المسلمون ولقد ظفر - رحمه الله- بالشهادة التي هي أفضل نهاية .

وممن ذَكَر الطبري النَّضْرَ بن راشد العبدي ، وكان دخل على امرأته والناس يقتتلون فقال لها : كيف أنت إذا أُتيت بأبي ضمرة(٢) في لَبْد (٣) مضرَّجا بالدماء ؟ فشقَّت جيبها ودعت بالويل ، فقال :

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤ .

(٢) يعني نفسه فهذه كنيته .

(٣) اللِّبْدُ البساط .

حسبـك، لو أعولَتْ عليَّ كلُّ أنثى لعصيـتها شوقـا إلى الحور العين، ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله [١].

وهكذا رأينا شوق هذا المجـاهد النبيل إلى الشهادة في سـبيل الله تعالى ، حيث لم يثنه عن الإقدام على الجهاد بكاء امرأته الشديد على فقده، ولقد قـارن بين متعة الدنيا ونعيم الآخـرة فأبان أنه لو جُمع له متاع الدنيا كله لم يعدل ماأعده الله سبحانه للشهداء من الحور العين، فضلا عما هو أعظم من ذلك من النعيم .

هذا وقد ذكـرنا سابقـا أن المسلمين التقـوا بالترك وكان المسلمون بقيادة الجُنَيد بن عبد الرحـمن المُرِّي ، والتُّركُ بقيادة خاقان، وأن عدد المسلمين كـان أقل من التـرك بكثـيـر ، ومع ذلك ثبـتـوا لهم إلى أن تحاجزوا وأوقفوا المعركة .

لكن خاقـان عاد بجـيشه بعـد ذلك بيوم وفي ذلك يقـول الإمام الطبري في سـياق روايته : وكانوا لقـوا خاقان يوم الجمـعة ، فأرسل الجنيد إلى عبد الـله بن معمر بن سُمَير اليـشكريِّ أن يقف في الناحية التي تلي « كِسَّ» ويـحـبس من مـرَّ به ويحـوز الأثقـال والرَّجَّـالة ، وجاءت الموالي رجالة ليس فيهم غير فارس واحد، والعدو يتبعونهم، فثبت عبد الله بن معمر للعدو فاستشهد في رجال من بكر .

قال : فأصبحوا يوم السبت [٢] ، فأقبل خاقان نصف النهار، فلم ير موضعا للقتال فـيه أيسر من موضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤ - ٧٥ .

(٢) يعني جيش المسلمين .

الحارث، فقصد لهم فقالت بكر لزياد : القوم قد كثرونا فَخَلِّ عنا نحمل عليهم قبل أن يحملوا علينا ، فقال لهم : قد مارست منذ سبعين سنة ، إنكم إن حملتم عليهم فصعدتم انهزمتم ،ولكن دعوهم حتى يقربوا ،ففعلوا ، فلما قربوا منهم حملوا عليهم فأفرجوا لهم، فسجد الجنيد،وقال خاقان يومئذ : إن العرب إذا أُحرجوا استقتلوا فخلُّوهم حتى يخرجوا ،ولا تعرَّضوا لهم فإنكم لاتقومون لهم.

قال : وخرج جَوار للجنيد يُوَلْولن ، فانتدب رجال من أهل الشام فقالوا : الله الله ياأهل خراسان : إلى أين : وقال الجنيد : ليلةٌ كليلة الجرَّاح ويوم كيومه [1] .

ففي هذا الخبر مواقف منها : أولاً ثبات عبد الله بن معمر اليشكري ومن معه من المسلمين لجيش يفوقهم كثيرا إلى أن استشهد في رجال معه رحمهم الله تعالى .

وثانيًا : موقف ثبات لبني بكر بقيادة زياد بن الحارث حيث صمدوا لجيش خاقان ، وفي كلام خاقان اعتراف للمسلمين بالشجاعة والإقدام حيث أوصى جيشه بأن لايصمدوا للمسلمين لأنهم لا يستطيعون ذلك .

وقول الجنيد « ليلة كليلة الجراح ويوم كيومه » يريد بذلك الجرَّاح ابن عبد الله الحكمي فارس أهل الشام وأمير أرمينية وقد انتصر على الروم والترك في وقائع عديدة إلى أن أُفرد في قلة من جيشه فهجم عليه الترك فقتلوه و من معه ، وذلك في العام نفسه الذي لقي فيه الجنيد خاقان والترك .

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٥ .

جهاد أسد القسري :

توفي الجنيـد بن عبد الرحـمن رحمـه الله وتولى إمرة خـراسان عـاصم بن عبـد الله الهـلالي ، ثم تولاها بعـده أسـد بن عبـد الله القـسري ، وقـد عَـبَر بجـيش المسلمين إلى بلاد مـاوراء النهـر ونزل بالخُتَّل، وعلم به خـاقان فأقـبل بجنوده وحال بينهمـا نهر بلخ فعـبر خاقان بعد أن قتل من لم يعبـر من المسلمين وأسر بعضهم ، وقد كان أسد أرسل الأثقال وهي الدواب والأطعمة ونحوها أمامه ومعها حامية بقيادة إبراهيم بن عاصم العُقيلي الجـزري فعلم بذلك خاقان فمال عن جيش المسلمين يريد أخذ الأثقال لأنها لاتكلفه قتالاً كبيراً .

واستـشار أسـد أهل الرأي فوقع الرأي على المسـير نحـو الأثقال لحمـايتها ومن مـعها ، وقـد كان أسد أرسل رسـولا إلى إبراهيم بن عاصم يخبـره بذلك فوصل إليه وعمل إبراهيم خندقا للحـماية، وقد وصل إليه خاقان بجـيشه وكانت بينهم مناوشة انتصر فـيها المسلمون، ثم اطَّلع خاقـان على مكان صالح للهجوم من خلف المسلمـين فهجم عليهم وحاز أثقـالهم وانحازوا عنه ، ثم انصرف عنهم خاقـان حينما رأى جيش المسلمين مقبلا بقيادة أسد القسري (١) .

وفي هذا الخبر موقف يذكر لإبراهـيم بن عاصم الجزري ومن معه من المسلمين حيث صدوا هجوم الترك رغم قلة المسلمين .

وموقف يُذكر لأسـد بن عبد الله القسري حيث عـزم على المسير

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ١١٣ - ١١٨ باختصار، وذلك في سنة تسع عشرة ومائة .

لإنقاذ المسلمين الذين كـانوا يحمون الأثقـال فأغَذَّ السيـر حتى وصل إليهم في الوقت المناسب فأنقذهم الله تعالى به .

المعركة الأخيرة مع خاقان :

يقول الإمام الطبري : فلما كان ليلة الأضحى قيل لأسد[١] : إن خاقان نزل « جَزَّة » ، فأمر بالنيران فَرُفِعَتْ على المدينة [٢] فجاء الناس من الرساتيق إلى مدينة « بَلْخ » فـأصبح أسد فـصلى وخطب الناس وقال : إن عدو الله الحارث بن سُرَيج [٣] استجلب طاغيته [٤] ليطفئ نور الله ويبـدل دينه والله مُـذِلّه إن شـاء الله ، وإن عـدوكم الكلْب أصاب مـن إخوانكم من أصـاب ، وإن يرد الله نصركم لم يضـركم قلتكم وكثرتهم ، فاستنصـروا الله ، وقال : إنه بلغني أن العبد أقرب مايكون إلى الله إذا وضع جـبهته لله ، وإني نازل وواضع جـبهتي ، فادعوا الله واسجدوا لربكم وأخلصـوا له الدعاء ، ففعلوا ، ثم رفعوا رؤوسـهم وهـم لايشكُّون في الفـتح ، ثم نزل عن المنبـر ، وضـحَّى وشاور الناس في المسـير ، فقال قوم : أنت شـاب ولست ممن تخوَّف من غارة ، على شاة ودابة تخاطر بخروجك ! قال : والله لأخرجن، فإما ظفر وإما شهادة ، قـال : وقال قوم : بل تخرج إليهم وتستنصر

---

(١) يعني أسد بن عبد الله القسري أمير خراسان .

(٢) وذلك علامة على نداء أهل القـرى المجاورة للتجمع ، وكان أسـد قد نزل مدينة بلخ فأمر بالتجمع للجهاد .

(٣) هو من العرب المسلمين ولكنه ارتد على عقبـه وتمرد على دولة الإسلام وحالف طغاة الكفار ضد المسلمين .

(٤) يعني خاقان .

الله عليهم، فوافق قولهم رأي أسد وماكان عزم عليه من لقائهم .

قال: ثم خرج فنزل بابًا من أبواب بلْخ وضُربت له قبة «فازتان»[1] وأُلصِق إحداهما بالأخرى ، وصلى بالناس ركعتين طوّلهما، ثم استقبل القبلة ونادى في الناس : ادعوا الله وأطال في الدعاء ، ودعا بالنصر ، وأمَّن الناس على دعائه ، فقال : نُصرتم وربِّ الكعبة ثم انفتل من دعائه فقال : نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله ، ثلاث مرات، ثم نادى مناديه : بَرِئَت ذمة الله من رجل حمل امرأة ممن كان من الجند .

قال : فنظر فإذا جارية على بعير ، فقال : سلوا لمن هذه الجارية؟ فذهب بعض الأساورة فسأل ثم رجع فقال : لزياد بن الحارث البكري - وزياد جالس - فقطَّب أسد وقال : لاتنتهون حتى أسطوَ بالرجل منكم يكرُم عليّ فأضرب ظهره وبطنه ، فقال زياد : إنْ كانت لي فهي حرة ، لا والله أيها الأمير مامعي امرأة فإن هذا عدو حاسد.

قال : ثم ارتحل وعلى مقدمته سالم بن منصور البجلي في ثلاثمائة ، فلقي ثلاثمائة من الترك طليعة لخاقان ، فأسر قائدهم وسبعة منهم معه وهرب بقيتهم ، فأتى به أسدًا ، قال : فبكى التركي، قال :مايبكيك ؟ قال :لست أبكي لنفسي ولكني أبكي لهلاك خاقان قال:كيف ؟ قال:لأنه قد فرق جنوده فيما بينه وبين مرو .

ثم ذكر التقاء الجيشين. .إلى أن قال :فلما التقوا حمل الحارث[2]

---

(١) يعني خيمتين من خيام الجيش .

(٢) يعني ابن سريح الذي كان مع خاقان .

ومن معه من أهل السُّغد والبابية وغيرهم على الميسرة وفيها ربيعة وجُندانَ من أهل الشام فهزمهم فلم يردهم شيء دون رواق أسد، فشدَّت عليهم الميمنة - وهم الأزد وبنو تميم والجوزجان - فما وصلوا إليهم حتى انهزم الحارث والأتراك ،وحمل الناس جميعًا ،فقال أسد: اللهم إنهم عصوني فانصرهم،وذهب الترك في الأرض عباديد[1] لايلوون على أحد ، فتبعهم الناس مقدار ثلاثة فراسخ يقتلون من يقدرون عليه ، حتى انتهوا إلى أغنامهم فاستاقوا أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة وداوبٍّ كثيرة .

أما خاقان فإنه فر هاربا ومعه الحارث بن سريج يحميه ، وكانت نهاية خاقان على يد أحد قادته وهو كُورصول الترقشي ،حيث لعب هو وإياه بالنَّرد فهدده خاقان بقطع يده ، فتنحَّى كورصول ، وجمع جمعا من أصحابه فبيَّت خاقان فقتله [2] .

وبعد ففي هذا الخبر مواقف عالية ، فمنها عزم أمير خراسان أسد ابن عبد الله القسري على غزو خاقان والترك ، وماكان يتحلى به هذا الأمير من الشجاعة وقوة الأمل بالنصر على الأعداء مع ماسبق منهم من الإيقاع بالمسلمين والإضرار بهم .

ومن مواقفه في ذلك ماجاء في خطبته الرائعة يوم عيد الأضحى التي اشتملت على الخضوع لله تعالى واللجوء إليه وطلب النصر منه، في حال مؤثِّرة جعلت أفراد الجيش يرفعون رؤوسهم من السجود وهم

---

(١) أي متفرقين في كل وجه .

(٢) تاريخ الطبري ٧/١١٩ - ١٢٥ باختصار .

لايشكُّون في النصر ، وبهـذا الدعاء الخاشع رفع من معنويـتهم وأقدم بهم على أعـدائهم وهم واثقون من نصـر الله تعالى ، ثم مـاجاء في دعائه الطويل بعد ذلك يوم أن التقى الصـفَّان ، وانصرافه من الدعاء وهو يبـشرهم بالنصـر على الأعداء ، وكل ذلك يدل على قـوة إيمانه وغزارة علمـه بالله تعالى ، حـيث ركَّز على أهم عـوامل النصر وهو التوكل على الله جل وعلا .

ومن المواقف المذكورة في هذه المـعركة ثبات أهـل الميمنة من تميم والأزد ومن معهم حـتى هزموا الأعداء بالرغم مما حصل على مـيسرة المسلمين من الهزيمة ، حـيث لم يفتَّ ذلك في أعضاد بقـية الجيش ، وهذا من أسرار عظمـة المسلمين في جهـادهم حيث لايؤثر فيـهم قتل قـادتهم ولاهزيمة بعـضـهم لأنهم إنما يقـاتلون غـالبا طلـبًا لإحـدى الحسنيين، إما النصر على الأعداء أو الشهادة في سبيل الله تعالى .

وهذا الثبات القـوي من الميمنة دفع بقية الجـيش إلى الإقدام على الأعداء حتى سحقوهم وشتتوا جمعهم .

وفي نهاية خـاقان عبر عظيـمة حيث تم قتله على يد أحـد قادته المقربين إليه ، ومن هذه العـبر أن الكفار مهمـا بلغ من تناصرهم فإن هدفهم هو جلب المصالح لأنفسهم وليس لديهم مبادئ سامية تحكمهم فإذا كانت مصالحهم في الاجتماع اجتمعوا على اعدائهم وإذا تعرضت مصالحهم الذاتية للخطر ضحَّى بعضهم ببعض وتفرقوا .

ومن ذلك سـوء النتـائج التي تتـرتب على اللعب بالنرد ونحـوه حيث ينتج عن ذلك العداوة والبغضاء التي قد يكون من نتائجها ذهاب مصالح أمة كما في هذا الخبر .

ومن ذلك أن الأعداء لايـجمعـهم مبـادئ سامـيـة وإنما يجمـعهم شخصـية قائد قوي يخضـعون له فإذا ذهب ذلك القائد تفـرق أتباعه وتناحروا فيمـا بينهم كما حصل لأتباع خاقـان حيث لم تقم لهم بعده قائمة ، أما المسلمون فإنهم يمتازون على غيرهم بأن الذي يجمعهم هو سلطان الدين وليس للقائد في نظرهم وجود كبير ولا أثر مصيري فإذا هلك قائدهم فإن خلفه قادة يقومـون بالأمر بعده ويسيرون على نفس المنهج ، ولو فُرض أنهم تفرقوا بعد موت القائد أثناء المعركة فإنه تفرُّق مؤقت لأن الذي ألَّف بين قلوبهم وجمعهم هو الخضوع للدين والدين لايموت .

وهذا من الأسبـاب الأساسـية في تماسك المسلمين وبقـائهم تلك القرون العديدة يهيمنون على أكثر بلاد العالم .

*　*　*

الجهاد فى المشرق

فــى

عهـــــد العباسيين

انتقاض أمير طبرستان وجهاده :

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في هذه السنة [١] نقض إصبهبذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين ، وقتل من كان ببلاده من المسلمين .

وذُكِر أن أبا جعفر [٢] لما انتهى إليه خبر الإصبهبذ ومافعل بالمسلمين، وجّه إليه خازم بن خزيمة وروْح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر ، فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه في حصنه ، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام، فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه : اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي، ففعلوا ذلك به ، ولحق بالإصبهبذ صاحب الحصن فقال له : إني رُكِب مني أمرٌ عظيم ، ضُرِبتُ وحُلق رأسي ولحيتي. وقال له : إنما فعلوا ذلك بي تهمةً منهم لي أن يكون هواي معك ، وأخبره أنه معه، وأنه دليل له على عورة عسكرهم. فقبل منه ذلك الإصبهبذ، وجعله في خاصته وألطفه .

وكان باب مدينتهم من حجر يلقى إلقاءً يرفعه الرجال، وتضعه عند فتحه وإغلاقه ، وكان قد وكّل به الإصبهبذ ثقات أصحابه، وجعل ذلك نُوبًا بينهم ، فقال له أبو الخصيب : ماأراك وثقت بي، ولاقبلت نصيحتي ! قال : وكيف ظننتَ ذلك ؟ قال : لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك ، وتوكيلي فيما لاتثق به إلا بثقاتك ، فجعل

(١) يعني سنة اثنتين واربعين ومائة .

(٢) يعني أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور .

يستعين به بعد ذلك ، فيرى منه مايحبّ إلى أن وثق به ، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه ، فتولّى له ذلك حتى أنس به. ثم كتب أبو الخصيب إلى رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة ، وصيّر الكتاب في نُشّابة ، ورماها إليهم ، وأعلمهم أن قد ظفر بالحيلة، ووعدهم ليلة سمّاها لهم في فتح الباب .

فلما كان في تلك الليلة فتح لهم ، فقتلوا من فيها من المقاتلة، وسبّوا الذراري ، وظُفر بالبحترية، وهي أم منصور بن المهدي، وأمّها باكند بنت الإصبهبذ الأصمّ - وليس بالإصبهبذ الملك ، ذاك أخو باكند - وظفر بشكْلة أم إبراهيم بن المهديّ ، وهي بنت خونادان قَهرمان المصمُغان ، فمصّ الإصبهبذ خاتمًا له فيه سم فقتل نفسه [(١)].

هذا الخبر فيه بيان خدعة حربية عالية قام بها مرزوق أبو الخصيب مولى أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، وقد استطاع أن يقوم بتلك الخدعة لكونه في الأصل من أهل تلك البلاد، وهذه تضحية كبيرة من أبي الخصيب لما قد يترتب على ذلك الأمر الذي أقدم عليه من عدم تصديق الأعداء له ووقوعه في أسرهم ، ولكنه قد استعد لاحتمال أسوإ النتائج في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين، وهذا يدل على إخلاصه وقوة إيمانه .

خروج أستادسيس ومن تبعه وجهادهم :

قال الإمام محمد بن جرير الطبري : فممّا كان فيها [(٢)] من ذلك

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٥١٢ - ٥١٣ .

(٢) أي في سنة خمسين ومائة .

خروج أستاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستان وغيرها من عامة خراسان ، وساروا حتى التقوا هم وأهل مَرْوالروذ ، فخرج إليهم الأجثم المَرْورُّوذيّ في أهل مَرْوالرّوذ ، فقاتلوه قتالا شديدًا حتى قتل الأجثم ، وكثر القتل في أهل مَرْوالروذ ، وهزم عدة من القواد، منهم معاذ بن مسلم بن معاذ وجبرئيل بن يحيى وحماد بن عمرو وأبو النجم السجستاني وداود بن كراز ، فوجه المنصور وهو بالبردان خازم ابن خزيمة إلى المهدي، فولاه المهدي محاربة أستاذسيس، وضمّ القواد إليه.

وذكر أن القائد خازم بن خزيمة اختلف عليه قادة جيشه بتحريض من وزير المهدي معاوية بن عبيد الله، فقدم خازم على المهدي وشكا إليه ذلك فأفرده بالقيادة والتصرف ، قال : فانصرف خازم إلى عسكره، فعمل برأيه، وحل لواء من رأى حل لوائه من القواد، وعقد لواء لمن أراد، وضمّ إليه من كان انهزم من الجنود، فجعلهم حشوًا يكثر بهم من معه في آخريات الناس ، ولم يقدمهم لما في قلوب المغلوبين من روعة الهزيمة ، وكان من ضم إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفا ، ثم انتخب ستة آلاف رجل من الجند، فضمهم إلى اثني عشر ألفا كانوا معه متخيرين ، وكان بكّارُ بن مسلم العقيلي فيمن انتخب ، ثم تعبأ للقتال وخندق . واستعمل الهيثم بن شعبة بن ظهير على ميمنته ، ونهار بن حصين السعديّ على ميسرته، وكان بكار بن مسلم العقيلي على مقدمته وتُرارخُدا على ساقته، وكان من أبناء ملوك أعاجم خراسان ، وكان لواؤه مع الزِّبرقان وعلمه مع مولاه بسَّام، فمكر بهم وراوغهم في تنقله من موضع إلى موضع وخندق إلى

خندق حتى قطعهم ، وكان أكثرهم رجالة ، ثم سار خازم إلى موضع فنزله ، وخندق عليه ، وأدخل خندقه جميع ماأراد ، وأدخل فيه جميع أصحابه ، وجعل له أربعة أبواب ، وجعل على كل باب منها من أصحابه الذين انتخب ، وهم أربعة آلاف ، وجعل مع بكار صاحب مقدمته ألفين، تكملة الثمانية عشر ألفا . وأقبل الآخرون ومعهم المروز والفؤوس والزبّل، يريدون دفْن الخندق ودخوله، فأتوا الخندق من الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم، فشدّوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق.

فلما رأى ذلك بكار رمي نفسه،فترجل على باب الخندق ثم نادي أصحابه وقال : من قبَلي يؤتى المسلمون! فترجّل من معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلا ، فمنعوا بابهم حتى أجلوا القوم عنه، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذسيس من أهل سجستان ، يقال له الحريش ، وهو الذي كان يدبر أمرهم ، فلما رآه خازم مقبلا بعث إلى الهيثم بن شعبة، وكان في الميمنة : أن اخرج من بابك الذي أنت عليه، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار ، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا ، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم . وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة بن طخارستان .وبعث خازم إلى بكار بن مسلم: إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلفك فكبِّروا وقولوا: قد جاء أهل طخارستان. ففعل ذلك أهل الهيثم ، وخرج خازم في القلْب على الحريش السجستاني، فاجتلدوا بالسيوف جلادًا شديدًا، وصبر بعضهم لبعض،

فبينا هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيثم وأصحابه ، فتنادوا فيما بينهم : جاء أهل طخارستان ، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام ، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها ، شد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم ، ولقيهم أصحابُ الهيثم ، فطعنوهم بالرماح ، ورموهم بالنُّشّاب ، وخرج عليهم نهار ابن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة ، وبكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم ، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون وأكثروا، فكان من قتل منهم في تلك المعركة نحوًا من سبعين ألفًا، وأسروا أربعة عشر ألفا ، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة ، فقدّم خازم الأربعة عشر ألف أسير، فضرب أعناقهم، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجبل الذي كان لجأ إليه، ووافى خازمًا بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما ، فأنزلهم خازم ناحيةً ، وقال : كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم . فحصر خازم أستاذسيس وأصحابه حتى نزلوا على حكم أبي عون، ولم يرضوا إلا بذلك ، فرضي بذلك خازم ، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه ، ففعل ، فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يُوثَق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يُعتق الباقون وهم ثلاثون ألفًا ، فأنفذ ذلك خازم من حُكم أبي عون، وكسا كلّ رجل منهم ثوبين ، وكتب خازم بما فتح الله عليه، وأهلك عدوّه إلى المهديّ ، فكتب بذلك المهدي إلى أمير المؤمنين المنصور [1].

---

(١) تاريخ الطبري ٨/٢٩ - ٣٢ .

فهذا الخبر فيه مواقف منها :

أولا : ماكان من قائد الجيش خازم بن خزيمة حينما أدرك الخلل في تنظيم عسكره فتلافى ذلك قبل مواجهة الأعداء وأصلح ماكان بحاجة إلى إصلاح ، وهذا يدل على وعي قيادي ، لأن من أهم أسباب النصر طاعة القائد وحسن اختيار الأعوان .

ثانيًا : ماقام به من المكر بالأعداء ومراوغتهم حيث صار ينتقل من موضع إلى موضع فكان ذلك سببا في تفرق جيش الأعداء ، لأن أكثرهم مشاة فحركتهم في التنقل بطيئة .

ثالثًا : ماقام به من إقامة الخندق حول جيش المسلمين ، وهذا أمر ضروري فيما إذا كان الجيش في بلاد الأعداء ، فمن المحتمل أن يأتوا من كل جهة ، فيكون الخندق وسيلة دفاعية حتى يتدبر القائد الخطط الحربية المناسبة .

رابعًا : موقف لبكار بن مسلم العقيلي حينما ثبت لما فر جنوده، فحفظ الباب الذي وكل به هو ومن ساعده من رجال عشيرته، وهذا أثر من آثار حسن اختيار القادة ، فلو كان مثل جنوده في الهلع والدهشة لفر معهم ولدخل الأعداء من ذلك الباب .

خامسًا : في هذا الخبر خطة حربية بارعة وضعها قائد الجيش خازم بن خزيمة ، حيث خطط لمباغتة الأعداء من خلفهم مع الهجوم عليهم من الأمام وإيهامهم بوصول مدد جديد للمسلمين، فكان ذلك سببا في هزيمتهم ، وهكذا تظهر نتائج الرأي السديد في الحرب، حيث يوفر القائد ذو الرأي الحصيف والتفكير المبدع جهودًا كبيرة على

المسلمين في إنهاء الحروب لصالحهم بأقل التضحيات .

سادسًا : موقف قيادي ناجح من خازم بن خزيمة ، حيث قبل حكم أبي عون بإعتاق جنود الأعداء بعد القبض على قائدهم وأقاربه، لأن في ذلك تأليفًا لأولئك الجنود، وقد أضاف إلى ذلك موقفا إنسانيّا نبيلا، وذلك بكسوة كل جندي من هؤلاء ثوبين، وإذا علمنا أن عددهم ثلاثون ألفا يكون قد أنفق عليهم ستين ألف ثوب، وهذا يقتضي صرف مبلغ كبير من المال ، ولاشك أن لهذا الموقف من أبي عون ثم من خازم أثرا على أولئك الجنود ، حيث سيكونون عونًا للمسلمين في المستقبل ، أو على الأقل سيسلكون سبيل السلامة فيأمن المسلمون شرهم .

* * *

فهرس الجزأين الثالث عشر والرابع عشر

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة